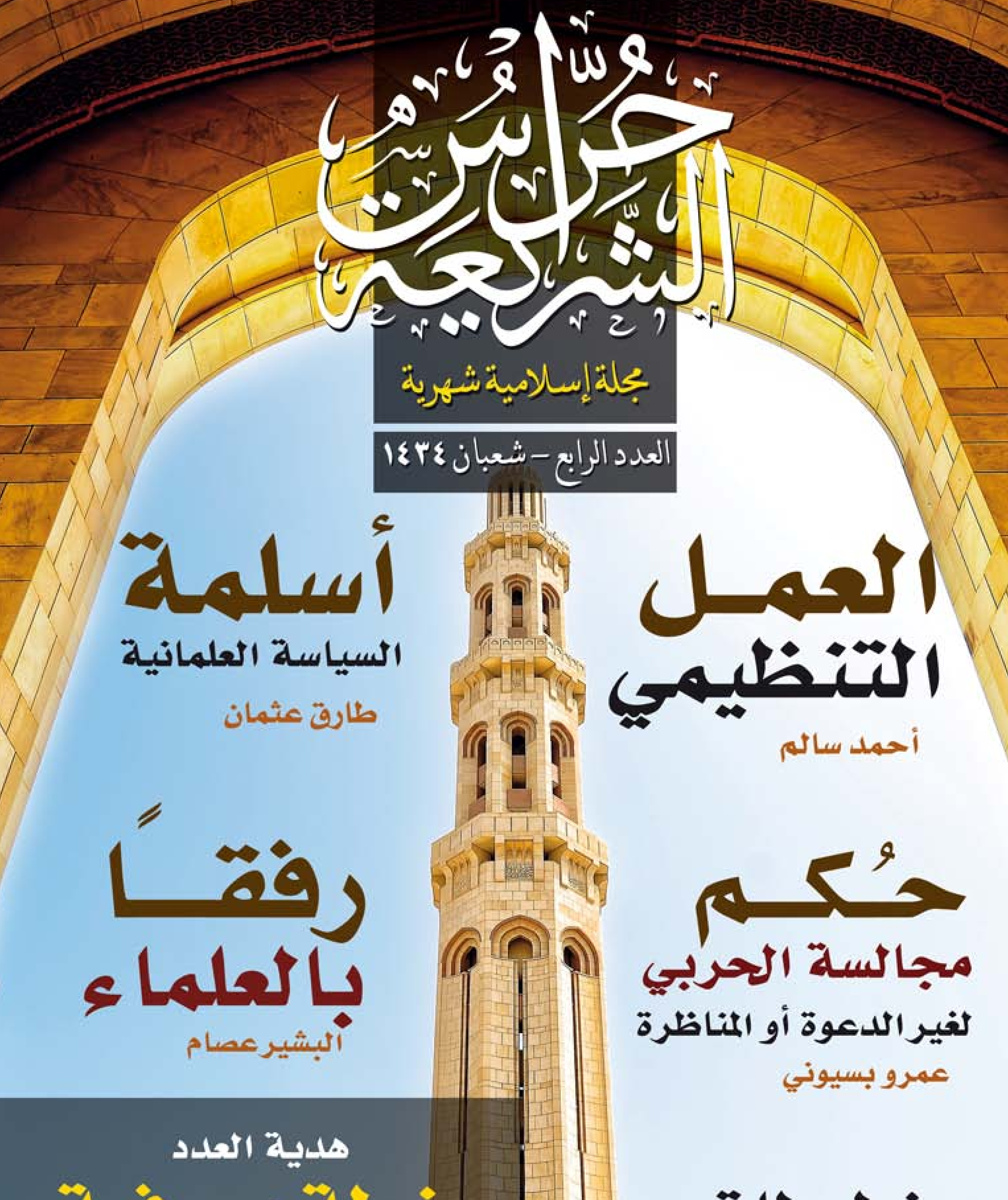
حراس الشريعة

مجلة إسلامية شهرية

العدد الرابع – شعبان ١٤٣٤



العمل التنظيمي
أحمد سالم

أسلمة السياسة العلمانية
طارق عثمان

حُكم مجالسة الحربي لغير الدعوة أو المناظرة
عمرو بسيوني

رفقاً بالعلماء
البشير عصام

مخطوطات بيتر
محمود توفيق

هدية العدد

خطة معرفية للعمل في ملف الإلحاد

كتبها: د. حسام الدين حامد

تحرير: أدهم حسين عبد الباري

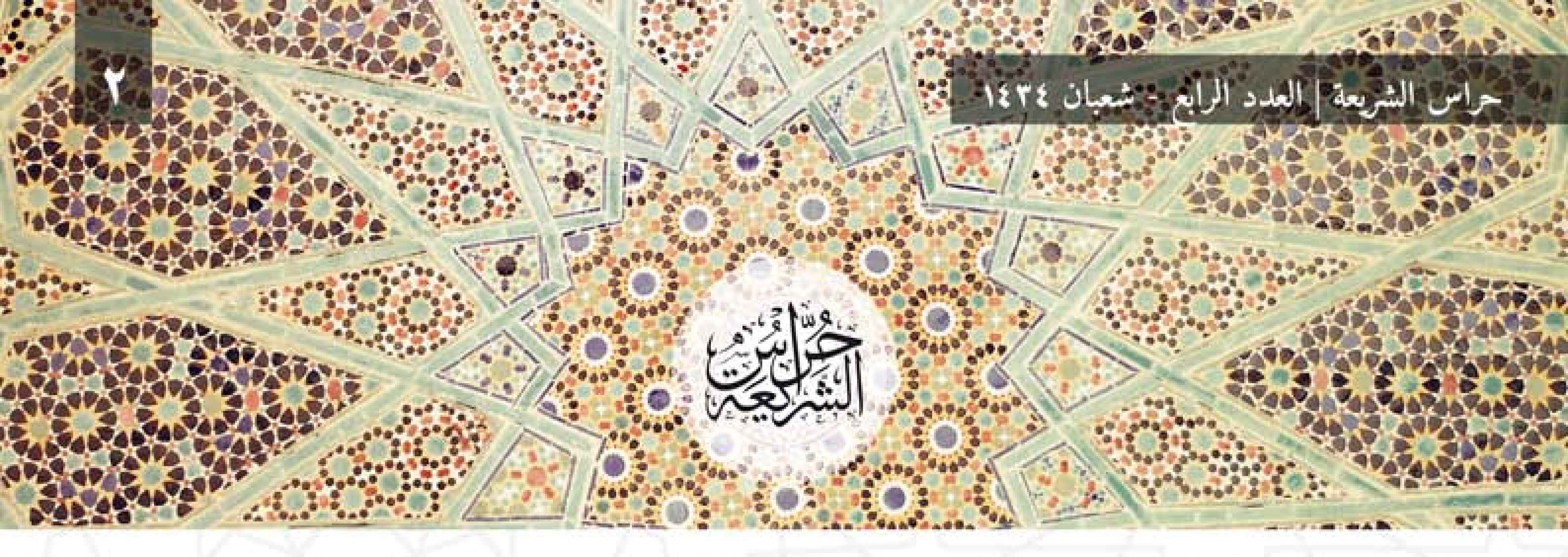


المدونة: http://alhorras.wordpress.com

فيس بوك: facebook.com/AlHorras

تويتـــــــــر: twitter.com/ALHorras

البريدالإليكتروني: horras.sh@gmail.com



الحمد لله وحده ..

لا يمكنك أن ترد واقع التجريف الثقافي وضحالة الوعي المنتشرة بين المسلمين اليوم إلى عامل واحد.
الظروف السياسية والاقتصادية، ومناهج التعليم، والأمية التربوية، وخنق الاستبداد للمجتمع ومحاصرته له-كل تلك العوامل وغيرها ساهمت في هذه النتيجة المحزنة والخطيرة في الوقت نفسه.

وساهمت الثورة المصرية والمتغيرات الاجتماعية والسياسية بعدها في زيادة واقع التجريف، وذلك بسبب التداعي المجتمعي تحت وطأة الحروب السياسية التي عاشها الناس خلال العامين الماضيين، خاصة مع انشغال كبرى الحركات الاجتماعية الإسلامية وغير الإسلامية في أتون السياسة الملتهب.

فسيلة المؤمن، الأشياء الصغيرة الفعالة، اجتماع النقط، طلب الفتح بطول الطَرْق، كل تلك المعاني هي ما يفتح للناس أفق الإصلاح رغم ضعف ما بين أيديهم من الإمكانات، وهي في الوقت نفسه ما يقطع عليهم باب العذر؛ إذ لا قعود حينئذ إلا من كسل وعجز.

بين صفحات هذه المجلة ستقابلك مجموعة من الأقلام تكسر الحدود ولا تعرف غير الإسلام رابطة تجتمع عليها؛ لتشترك في هم أساسي واحد هو محور اجتماعهم بقطع النظر عن مواطن اتفاقهم واختلافهم الأخرى؛ إنه هم الثقافة والوعي، وسبل إعادة إخصاب هذه الأرض المجرفة، واستثمار ما فيها من بقايا البذور ومكاثرتها، وتعاهدها بالسهر والري، وقتل ما قد يعرض لها من الآفات التي تريد اغتيالها قبل أن تؤتي أُكُلها.

لم تجتمع هذه النخبة لتحملك على موافقتها الرأي، وإنما لتحرضك على تجويد صناعة الرأي.
لم تجتمع هذه النخبة لتصنع منك نسخة منها بل لعلها لا ترجو شيئًا كرجائها أن تكون نسيج وحدك.
لم تجتمع هذه النخبة لتلقنك أفكارها، وإنما لتقيم لك أمثلة في طرائق إقامة الأفكار؛ لتقيم أنت صروح أفكارك.

الدين والوحي والفقه والوعظ والأدب والسياسة والفلسفة والاجتماع والتاريخ وكل ما له صلة بتجويد صناعة التفكر ستجدونه بين جنبات هذه المجلة، تعاملوا معه على أنه بذور منثورة، وتابعوا معنا ومع غيرنا ومع أنفسكم مثنى وفرادى، وارتقبوا وقت حصاد ثمار أنفسكم بعد هذا البذر الطويل، وآتوا حقه يوم حصاده، واشكروا لله واعبدوه.

وعلى الله قصد السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

هيئة التحرير



العمل التنظيمي

أحمد سالم

(1)

المقصود بالعمل التنظيمي هو العمل الجماعي المبني على تراتبية هرامية وقيادة فردية أو جماعية، توجه الأتباع بالأوامر المستوجبة للطاعة، والمستندة إلى نوع من أنواع الشرعية، ليست هي شرعية الدولة، ولا شرعية التعاقد الإداري المؤسسي.

والعمل الجماعي التنظيمي ليس ضدًّا للفردية بل هو ضد للعمل الجماعي غير التنظيمي، والعمل الجماعي غير التنظيمي صور شتى تشمل المؤسسات (أنصار السنة مثالًا)، والأعمال الجماعية منظمة المهام بدون هيكلة تراتبية (نموذج فريق معرفة مثالًا).

وكل الأعمال الجماعية بما فيها التنظيمي وغيره داخلة تحت نصوص المدح بالتعاون على البر والتقوى، كما أن كل عمل جماعي من أي نوع على إثم وعدوان يكون داخلًا تحت نصوص ذم التعاون على الإثم والعدوان.

وبالتالي المغالطة المشهورة بوضع التنظيمات على أنها هي العمل الجماعي فقط في مقابل العمل الفردي =محض خطأ. فالواقع أن التنظيمات هي إحدى صور العمل الجماعي، وسبب توجيه النقد لها بالذات أنها أكثر صور العمل الجماعي إفرازًا للسلبيات، بسبب خطأ في التصورات يخلط العمل التنظيمي بمفاهيم الجندية والعسكرة، وبسبب أخطاء أخرى راجعة للظروف التاريخية لتكوينها، وبسط هذا في موضع آخر.

والذي ينتقدها إنما ينتقد نموذجًا مخصوصًا من العمل الجماعي، ولا ينتقد جنس العمل الجماعي، كما أنه لا يلزم أن يكون غرضه من الانتقاد إعدام التنظيمات، بل ربما كان غرضه طلب بقائها مع طلب التخلص من سلبياتها قدر الطاقة.

المقصود هنا: أن الساحة الإسلامية مليئة بالأعمال الجماعية المؤسسية، وبالأعمال الجماعية جزئية التنظيم بدون تراتبية؛ بل لا تكاد تخلو شعبة من شعب الإيمان المجتمعية من ترتيب جماعي من نوع ما، وبالتالي فلا صحة للتعامل مع نقد التنظيمات وسلبياتها على أنه فردية؛ بل هذا نوع من التشنيع (الأيديولوجي) الكاذب؛ والذي غرضه تشويه الفكرة بسبب العجز عن مناقشتها.

(2)

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن العمل الجماعي التنظيمي هو بنفسه مذموم غير مشروع، وهؤلاء أيضًا لهم تصور معتبر في المسألة، وهم يرون العمل من داخل نطاق الدولة المسلمة، أو العمل الجماعي غير التنظيمي، ولا يدْعون للفردية.

ولا أرى صواب هذا القول، وأرى جواز كل عمل جماعي، تنظيمي وغيره، إلا ما كان فيه زيادة في الحب الإيماني لأجل الحزب، أو زيادة في البغض لأجل الحزب، أو كان اجتماعًا على الأشخاص لا على الحق، أو تقديمًا لمن لم يقدمه الله وإنما قدمه الحزب، أو تأخيرًا لمن لم يؤخره الله وإنما أخره الحزب، أو كان فيه ترجيح في الخلاف لأجل الحزب لا لأجل تبين الحق، أو كان فيه تأثيم شرعي على الخطأ الإداري، أو براءة ومباعدة بمجرد عدم التوافق الإداري أو الشرعي السائغ، أو كان فيه تعطيل للكفاءات والمواهب وربط التقديم والتأخير بالموالاة الإدارية التنظيمية لا بالرصيد الإيماني والكفاءة الحاصلة.

وأكثر هذه الأبواب لا تكاد تقع جلية فصيحة؛ وإنما يخدع بها الشيطان الإنسان عن نفسه وتحتاج لمجاهدة ومكاشفة، وبعضها هو من قبيل الحالات النفسية التي تقع من الإنسان لا يمسك بها إلا إن تتبعها وطلب تخليص نفسه منها.

الآن: هل يمكن خلو تنظيم من هذه الآفات؟

من ناحية الإمكان العقلي والشرعي =ممكن، أما من ناحية العادة المشاهدة =فلا يمكن؛ فيعود الحكم الشرعي هنا لمسألة القلة والكثرة.

فإن كان هذا قليلًا مصحوبًا بتحذير أفراد العمل منه ومجاهدتهم لعلاجه =لم يمكننا منع العمل التنظيمي لأجل هذا وإلا لزمنا وقف الجهاد؛ لأنه يقع فيه الرياء والسمعة والتشهي للغنائم، وهذا باطل بل هو من جنس الذين قعدوا عن الجهاد خوف الفتنة فسقطوا فيها.

أما إن كثر هذا =فيرجع القول لباب سد الذرائع، ويسوغ حينها قول من يقول بمنع التنظيم؛ لكونه ذريعة لهذا الفساد، خاصة أنه يصل أحيانًا لفساد أعظم من فساد الميسر الذي حرم لأسباب يقع جنسها في التنظيمات.

وبحسب حصول الذريعة ووقوعها ومشاهدتها =تزداد قوة الذاهب لسد الذريعة بمنع التنظيمات أو تضعف. كما أن الباب يظل مفتوحًا لإقامة نماذج خالية من ظهور هذه المفاسد بكثرة؛ فبناء الحكم على سد الذريعة لا يصلح أن يُعد وحيًا قطعيًّا من جنس ما حرمته الشريعة سدًّا للذريعة؛ بحيث نقطع بعدم إمكان حصوله إلا مصحوبًا بالفساد؛ بل هو من موارد الاجتهاد يمكن أن يدعى إمكان إقامته خاليًا من الفساد الظاهر، ورأيي أن خلو النماذج التنظيمية من الفساد يحتاج لصدق وتجرد وزيادة في الوعي الثقافي.



وأرى أن أكثر ما يناسب أحوال الأمة اليوم هو العمل المؤسسي لا التنظيمي، والمقصود بالعمل المؤسسي في مقابل العمل التنظيمي: هو العمل الذي تخف فيه القبضة المركزية للقيادة الهرمية، وتتخذ فيه القرارات بناء على لوائح مفصلة منضبطة، مع سريان حالة رقابة متبادلة بين القيادة وفروع المؤسسة في تحقيق مدى الالتزام باللائحة الإدارية، مع وجود شورى منظمة الآليات واضحة المعالم، مع قدر من الشفافية له أيضًا المعايير الإدارية التي توضح درجته.

(3)

الدراسة الاجتماعية لواقع التنظيمات تدلنا على عدة إشكالات فيها، بعضها سبق ذكره فنؤكده، وبعضها نشير إليه ابتداء هنا، وبعضها يرقى لمستوى الظاهرة، وبعضها حالة موجودة ليست نادرة وليست منتشرة، والوعي بهذه الظواهر يعين التنظيمات على تنقية الصف؛ لكن الإشكال أن الكذب على النفس يحول دون ذلك في أحيان كثيرة، فلا يبقى إلا أن يعيها غيرهم فلا يضلون بها.

نقرر ذلك من خلال النقاط التالية:

أولًا: كثير من التنظيمات القائمة على عقيدة و(أيديولوجيا) طاردة للمفكرين، معظمة للجنود الذين يسمعون ويطيعون مع قدر قليل أو معدوم أو غير فعال أو شكلي من النقاش والشورى العامة.

والحقيقة أن التنظيمات إن لم تستقم إلا بالعسكرة والسمع والطاعة العمياء =فلا خير فيها.

وعلى الرغم من أن أكثر ما تُسلم له العقول في قضية السمع والطاعة: لزوم الطاعة في الجندية، وأن الجندي لو فكر وناقش =لم تستقم العسكرية وربما أدى ذلك لكوارث في الحروب، رغم ذلك فإن أحد أهم أحاديث الطاعة وأنها لا تكون إلا في المعروف =جاء في سياق الجندية والعسكرية؛ ليكون هذا من أهم إصلاحات الإسلام للنظم العسكرية القائمة في العالم.

عن علي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية وأمّر عليهم رجلًا، وأمَرهم أن يطيعوه، فأجج لهم نارًا وأمرهم أن يقتحموها؛ فهمّ قوم أن يفعلوا، وقال آخرون: إنما فررنا من النار. فأبوا، ثم قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة، لا طاعة لبشر في معصية الله عز وجل، إنما الطاعة في المعروف".

وهذا يقتضي أن العقل لا ينبغي أن يتوقف عن محاكمة ما يصدر له من أوامر حتى في سياق الجندية؛ ليميز ما يتعلق بالحلال والحرام من غيره، ثم يعرض هذا الذي ميزه على الوحي فلا يطيع في معصية.

ولم يخلق الله بني آدم إلا لعبادته، ولا تستقيم عبوديتهم حتى يتحرروا من كل عبودية لغيره سبحانه، ولا يتم لهم هذا التحرر إلا بأن يستقل نظرهم وتفكيرهم عن الطاعة العمياء، ولا يستقل لهم هذا النظر حتى يستكملوا أدواته، وهذا الاستكمال عملية متتابعة مدة العمر لا ينفك عنها الإنسان، وهو مأمور في كل حال بحسبه أن يعرض ما يؤمر به على الوحي؛ فلا يطيع في معصية بانت له.

ويتوسل بعض التنظيميين لغرضه من نشر العسكرة في التنظيم بدعوى أن أمر القائد ملزم حتى في مسائل الحلال والحرام ما دامت المسألة اجتهادية، وهذا خطأ؛ فالمسائل الاجتهادية فيها خطأ وصواب وحلال وحرام، وموافقة التنظيم أو الحزب لمجرد أنه أمر وإن كان قراره خطأ هو قيمة سياسية علمانية مخالفة للشريعة، التي لا تجيز الطاعة إلا في المعروف، ولو كان قول الحزب سائغًا ما دام أنه خطأ.

فالحقيقية أنه لا فرق بين الخطأ السائغ وغير السائغ ولا فرق بين المسائل الاجتهادية وغير الاجتهادية من جهة وجوب عدم التلبس بما تعتقد خطأه، ومن استبان له الحق لم يجز له تركه وإن كان يُستحب له القيام بهذا الحق بما يقلل فساد الخلاف، ونصوص الشريعة القطعية وعمل السلف هو الدوران مع البينة قطعية كانت أو ظنية، ومصلحة الاجتماع هي الاجتماع على الحق، أما الاجتماع على ما أرى أنه خطأ فمفسدة لا تبيحها الشريعة؛ ولذلك تحرم الطاعة للجماعة الأم جماعة الخلافة إن كانت الطاعة في معصية، ولم تفرق بين معصية قطعية أو ظنية، وهذه المسألة هي أحد الفروق المهمة بين التحزب المذموم والتحزب المشروع.

وتبقى صورة واحدة وهي الخطأ السياسي والإداري الذي لا يدخل دائرة الحلال والحرام؛ كاختيار مرشح معين بين مرشحين متساوين في الشروط الشرعية، أو أمر العضو بخطبة الجمعة في مسجد دون غيره وليس في المسجد المأمور به مانع شرعي =فهذا له تقديرات مختلفة؛ لكنه في الجملة هو القسم المرشح لأن يطيع فيه العضو أوامر القيادة وإن كان يرى خطأها، ما دامت ليست من أبواب الحلال والحرام.

وقول العرب: "كدر الجماعة خير من صفو الفُرقة" هو أصح وأصوب من قول من قال: "كدر الجماعة خير من صفوك وحدك"؛ لأن طلب اللحاق بالجماعة لا يكون لمجرد كونك وحدك دونهم وإنما يكون خوف الفرقة، وقد يجتمع أن تكون وحدك دونها ولا تكون فرقة، وهذا أحسن للدين والدنيا من إطراد طلب اللحاق بها خوف التفرد.

والفرقة لا تكون إلا إن أعرض أحد الفريقين عن البينة بعد ظهورها، أو إن بغى بعضكم على بعض، فأما إن قلتَ من حيث تعلم ولم تعرض عن بينة ولا بغيت على أحد =فلا يكون تركك ما ظهر لك ولحاقك بالجماعة حينها مما يُمدح. ومن تلك الشعبة قول ابن مسعود: أنت الجماعة ولو كنت وحدك.

والحقيقة أن المكونات الاجتهادية النقدية التعليمية داخل الحالة السلفية بالذات تؤدي إلى أن تكون الحالة السلفية طاردة للطبيعة التنظيمية؛ لذلك لا يستقيم للسلفيين إقامة بناء تنظيمي إلا بتخفيف المكون الاجتهادي النقدي التعليمي، أو تخفيف المقتضيات التنظيمية، أو تخفيفهما معًا.

وتطورات الأوضاع مع عوامل أخرى هي وحدها من يحكم أي نسب التخفيف ستكون أكثر: تخفيف المكونات السلفية؟ أم تخفيف المقتضيات التنظيمية؟

ثانيًا: انتشار التبرير والقدرة اللا محدودة على التأويل المستهتر للتصرفات الذاتية.

والفرق بين التبرير الهوائي والترجيح العلمي: أن القلب في التبرير يجري أول شيء نحو العلل والأسباب والمسوغات، التي تجعل القول أو الفعل صحيحًا غير منكر.

أما الترجيح العلمي فهو عملية موازنة طويلة بين مسوغات التخطئة ومسوغات التصويب، وقد تأخذ وقتًا طويلًا ومجهودًا، وما يميزها هو بذل الوسع في مقارنة المسوغات دون القضاء للتخطئة أو التصويب إلا بعد التأني والنظر. ببساطة انظر ماذا يفعل قلبك عندما تسمع أو تقرأ القول أو الفعل، العجلة لمسوغات التصويب مباشرة =تبرير هوائي.

ثالثًا: اختلاط الولاء الديني بالولاء التنظيمي، واختلاط المحبة الفطرية عندهم بالمحبة الشرعية، وتقديم من لا بينة على تقديمه وإبعاد من لا بينة على إبعاده؛ لمجرد الانتماء التنظيمي.

يقول شيخ الإسلام: "لا يفرق بين المؤمنين لأجل ما يتميز به بعضهم عن بعض؛ مثل الأنساب والبلدان والتحالف على المذاهب والطرائق والمسالك والصداقات وغير ذلك؛ بل يعطى كل من ذلك حقه كما أمر الله ورسوله، ولا يجمع بينهم وبين الكفار الذين قطع الله الموالاة بينهم وبينه؛ فإن دين الله هو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا". [جامع الرسائل (2/319)]

ويقول الشيخ: "وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه؛ بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخان وأمثاله؛ الذين يجعلون من وافقهم صديقًا مواليًا، ومن خالفهم عدوًّا باغيًا؛ بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله؛ ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويرعوا حقوق المعلمين كما أمر الله ورسوله، فإن كان أستاذ أحد مظلومًا نصره، وإن كان ظالمًا لم يعاونه على الظلم؛ بل يمنعه منه.

وإذا وقع بين معلم ومعلم، أو تلميذ وتلميذ، أو معلم وتلميذ خصومة ومشاجرة =لم يجز لأحد أن يعين أحدهما حتى يعلم الحق؛ فلا يعاونه بجهل ولا بهوى؛ بل ينظر في الأمر، فإذا تبين له الحق أعان المحق منهما على المبطل، سواء كان المحق من أصحابه أو أصحاب غيره؛ وسواء كان المبطل من أصحابه أو أصحاب غيره؛ فيكون المقصود عبادة الله وحده وطاعة رسوله؛ واتباع الحق والقيام بالقسط". [مجموع الفتاوي (28/16)]



رابعًا: الضعف العلمي والثقافي والفكري، بسبب استغراق المهام التنظيمية للجهد والوقت، وحرص بعض التنظيمات على الحفاظ على أتباعها في مستوى ثقافي معين لا يجاوزونه.

فكثير من الإسلاميين خاصة التنظيميين مستهلكون تمامًا من قبل قياداتهم في محاضرات ودروس ودورات ومعسكرات، معظمها إنفاق من رأس المال، وستمر السنون وهذا المسكين الذي يقرأ بالكاد كي يلاحق تكليفاته =سيصير بعد سنين قياديًا من قيادات العمل الإسلامي. وهكذا دواليك، دائرة مفرغة من ضحالة الثقافة والمعرفة مع تصدر جريء.

وبعضهم لا يملك ما يجابه به كلام من يحضهم على إيقاف هذا العبث، إلا فخريات التكاثر التي ما كانت يومًا حجة على القوة النوعية.

خامسًا: بناء العلاقة مع المجتمع على منطق الصياد والسنارة؛ فهو ينفتح على المجتمع بالقدر الذي يسمح له بجذب الأفراد للتنظيم، ونادرًا ما يعجز عن إقامة علاقات اجتماعية متكاملة خارج هذا الإطار.

سادسًا: النرجسية ورؤية الذات، والمفاضلات غير المبنية على أسس شرعية محكمة.

كقول أحدهم: "وأكبر الكيانات داخل التيار السلفي، وأكثرها شمولية في فهم الإسلام وتطبيقه نحن".

وهذه العبارات تخرجنا من مدح فصيل له جهده إلى المبالغة غير الصادقة وغمط الناس، وأمثال هذه العبارات هي بالضبط التي تثير على شبهة التحزب البدعي المحرم، والمختلف صورة وحكمًا عن العمل الجماعي التنظيمي الجائز في الجملة.

سابعًا: وجود حالة من التبعية، تعتمد على سيادة المتبوع على التابع، وتحويله إلى ببغاء مبرر وجندي أمن مركزي، وهذه الحالة تحتاج لأساس يستمد منه المتبوع شرعية سلطته على التابع.

وهنا قد يكون أساس الشرعية دينيًّا فقط؛ كما نجده في شرعية المعصوم عند الروافض، أو شرعية طاعة العلماء أو تاريخ التضحية للدين، وقد يكون أساس الشرعية يرجع للتكافل المادي والمعنوي، أو ما يسمى بشرعية الإنجاز، وقد يكون أساس الشرعية كاريزميًّا؛ حيث يصدر المتبوع نفسه أو على الأقل يراه التابع على أنه أنموذج نادر في المواهب والإمكانات.

والغالب على التيارات الإسلامية هو وجود خلطة من هذه الأسس، التي تشكل حالة الطاعة العمياء، والتبرير الأيديولوجي، وعسكرة الأفكار الموجودة فيهم.

وبعد..

فهذه خلاصة مركزة يمكنك أن تعدها مخطط أفكار حول هذا الموضوع المهم، وأرجو أن أجد متسعًا بعد ذلك لتعميق النظر في هذا الباب المهم.

والحمد لله رب العالمين.

أسلمة السياسة العلمانية

تمرين على خيبة الأمل

طارق عثمان

مقدمة

الثورة في أحد أهم مدلولاتها، تُعبِّر عن التغيير الجذري لواقع مجتمعي معين. وإن كان هذا التغيير عامة لصيق الصلة بالمستوى السياسي من المجتمع؛ حيث تدل الثورة على إزالة نظام سياسي معين بطريقة جذرية، قد يصحبها عنف غالبًا، وإبداله بنظام سياسي آخر. [للمزيد عن معنى الثورة وفلسفتها راجع كتاب "في الثورة"، للفيلسوفة الألمانية الشهيرة "حنة أرندت"، وقد صدرت الترجمة العربية له عن المنظمة العربية للترجمة، ومركز دراسات الوحدة العربية، وهي من إنجاز: عطا عبد الوهاب]

إلا أن هذا التغيير في واقع الحال لا يقتصر علي المستوى السياسي، وإنما يمتد لباقي المستويات المجتمعية: الاقتصادية، والثقافية.

وبالتدبر في واقع الثورة المصرية، يمكننا أن نقبض على بعض التغيرات الظاهرة، في المستوى السياسي خاصة، إذ إن التغيير في باقي المستويات المجتمعية يحتاج إلى وقت طويل كي يظهر بجلاء؛ وذلك لكون الثورات يعقبها غالبًا فترات من عدم الاستقرار، الناتج عن عملية إحلال النظام السياسي الجديد، الذي جاءت به الثورة، محل النظام القديم، الذي أسقطته الثورة.

ومن ثم فإن التغيرات العميقة التي تمس كل مستويات المجتمع الأخرى، تستهلك مساحة واسعة من الوقت، كي تتحقق.

في هذا السياق يعتبر وصول الإسلاميين للحكم هو التغير السياسي الأهم الذي انتجته الثورة المصرية.

["الإسلاميون": هو المصطلح العربي المقابل لمصطلح Islamists ويساويه مصطلح "الإسلام السياسي"، الذي يقابله political Islam. وبغض النظر عن مدى دقة هذين المصطلحين، فقد شاع استخدامهما، للتعبير عن الحركات السياسية المنطلقة من (الأيديولوجيا) الإسلامية، والتي تسعى للوصول إلى الحكم، بغرض تطبيق الشريعة الإسلامية. وثمة مصطلح آخر أكثر دقة، ولكنه أقل ذيوعًا، هو: "الحركات الإسلاموية"، ومن ثمة سنستخدم التعبير الأول: "الإسلاميون" اعتمادًا على ذيوعه].



ثمة أبعاد كثيرة لهذا التغيير -أعني وصول الإسلاميين للحكم- تمثل مادة غنية للبحث والدراسة؛ أبعاد تتعلق بطبيعة علاقة الإسلاميين بالسياسة عامة، قبل الثورة وبعد الثورة. وكذلك أبعاد تتعلق بطبيعة خطابهم السياسي، منذ الثورة وحتى الوقت الراهن. وأبعاد تتعلق بآثار انخراطهم في الممارسة السياسية على ممارستهم الدعوية في المجتمع.

في ورقتنا هذه، سوف ننشغل بتحليل (ديناميكيات) التأثير المتبادل، بين الإسلاميين والبيئة السياسية المشتغلين فيها.

بعبارة أكثر تحديدًا سنحاول أن نجيب عن التساؤل التالي:

"هل ستثمر الممارسة السياسية للإسلامين تغيرات في طبيعة البيئة السياسية المصرية، أو طبيعة الفعل السياسي ذاته، أم أن هذه الممارسة هي التي ستثمر تغيرات بنيوية و(أيديولوجية) في طبيعة الإسلاميين؟"

وسننطلق في تحليلنا من فرضية بحثية نروم اختبار مدى قدرتها التفسيرية [المقدرة التفسيرية هو مصطلح صكه د. عبد الوهاب المسيري؛ لاستخدامه بدل مصطلح "موضوعي"، للتعبير عن مدى تمكن فرضية معينة من تقديم تفسير لظاهرة معينة، فثمة فرضيات ذات مقدرة تفسيرية عالية، وأخرى ذات مقدرة أقل] لطبيعة الانعكاسات المتبادلة بين الإسلاميين والممارسة السياسية.

ويمكن صوغ هذه الفرضية كالآتي:

"انخراط الإسلاميين في صلب العمل السياسي، بممارسة الحكم أو المعارضة السياسية، سوف يُنتج تغيرات في طبيعة الإسلاميين "الخطابية" و"الأيديولوجية" و"التنظيمية"، أكثر مما سيُنتج تغيرات في طبيعة الممارسة السياسية نفسها أو طبيعة البيئة السياسية الداخلية والخارجية".

جدل الفكر والواقع: من يُنتج الآخر؟

ثمة مذهبان كبيران، تناولا طبيعة العلاقة بين الفكر والواقع، سار كلٌّ منهما في اتجاه معاكس للآخر: الأول هو مذهب "المثاليين"، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني الأشهر: "هيجل" (1770–1831). والثاني هو مذهب "الماديين"، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني: "ماركس" (1818–1883). بالنسبة لـ"هيجل" فإن الفكر/الوعي، هو من ينتج الواقع. بينما "ماركس" قد قلب هذه العلاقة؛ جاعلًا الواقع المادي (وسائل الانتاج الاقتصادي، والفوارق الطبقية في المجتمع) هو من يسبق الفكر وينتجه.

يمكننا في هذا السياق أن نتخذ موقفًا وسطًا بين المذهبين؛ فنقول إن ثمة تأثيرًا متبادلًا بين الفكر والواقع، ولا يستقل أحدهما بإنتاج الآخر بصورة تامة؛ كالآتي: المنتمون إلى نسق فكري معين، وينطلقون منه كـ(أيديولوجيا) تشرح رؤيتهم للعالم، في سعي مستمر لإنزال هذا النسق الفكري من سماء النظر والمثال إلى أرض الواقع والتجربة. ومن ثم يُنتج هذا التمثّل للفكر تغيرات في الواقع، كم وكيف هذه التغيرات تحدده الرهانات السوسيو-تاريخية المحايثة لتجربة التمثّل هذه.

فمثلًا الإسلاميون ينتمون للفكر الإسلامي، ويسعون لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الواقع، من خلال الممارسات الدعوية، والسياسية في المقام الأول. هذا السعي يُؤثر في طبيعة هذا الواقع.

ولكن من ناحية أخرى دومًا يفرض الواقع تحديات على الفكر؛ بمعنى أن الواقع يتسم بالتغير المستمر، وعلى الفكر أن يواكب هذا الواقع، كيما يستطيع التأثير فيه، مواكبة تقتضي أن ينشغل المنتمون له بتقديم تطويرات نظرية في بنيته. ومن ثم يكون الواقع أنتج تغيرات في الفكر.

فمثلًا الإسلاميون مطالبون دومًا بمواكبة الواقع الذي يشتغلون فيه بتقديم غطاء نظري يؤطر شرعيًّا متغيرات هذا الواقع، وكذلك يؤطر التغيرات التي تطرأ على طبيعة اشتغالهم هذا. ومن ثم ومع الوقت يكون الواقع قد أسهم في تشكيل بنيتهم (الأيدولوجية) المنطلقين منها.



انطلاقًا من هذا المهاد النظري يمكننا أن نتساءل عن طبيعة التأثير المتبادل، بين الإسلاميين والممارسة السياسية (حكمًا، ومعارضة) في مصر ما بعد الثورة.

ماذا يريد الإسلاميون من السياسة؟

بطريقة مثالية وتجريدية يمكننا الزعم بأن هدف الإسلاميين من المشاركة في العملية السياسية فيما بعد الثورة هو: استغلال حالة الانفتاح التي أنتجتها الثورة، في مزاحمة القوى المدنية/العلمانية، على البيئة السياسية، بغرض السعي نحو الحفاظ على هوية مصر الإسلامية عامة، والعمل على تمهيد الطريق لتطبيق شرع الله في المجتمع المصري. ولكن ثمة سؤال يقابلنا في هذا السياق: هل بنى الإسلاميون تصورًا كاملًا عن هذا الهدف، وعن آليات الوصول إليه، ضمن (استراتيجية) ناجزة ومدروسة؟

أجادل بأن طبيعة الممارسة السياسية للإسلاميين منذ ثورة 25 يناير وحتى الراهن تنبئنا بالآتي: انخراط الإسلاميين في العملية السياسية لم يكن نابعًا عن رؤية متكاملة؛ فالثورة لم تكن إرادة الإسلاميين، ولكنهم لم يجدوا مناصًا من المشاركة فيها (الإخوان، بعض القوى السلفية). أو الامتناع عن التورط فيها (الدعوة السلفية). ومن ثم لم يكن لدى الإسلاميين عامة أية خطط لليوم التالي لسقوط "مبارك"، وبالتالي كانت البيئة السياسية هي من تتحكم في الإسلاميين لا العكس، أو قل إنهم لم يكونوا مالكي زمام المبادرة، بل كانوا دومًا في موقف رد الفعل لا الفعل.



وعليه يمكننا القول إن الإسلاميين يعرفون ما يريدون من السياسة نظريًّا، ولكنهم لا يملكون الاستراتيجية الناجزة التي تمكنهم من الوصول لما يريدون؛ فقد زُجّ بهم في أتون بيئة سياسية غاية في التعقيد، يكتشفون معالمها يومًا بيوم، ويتخذون مواقفهم فيها كذلك يومًا بيوم.

ماذا أخذ الإسلاميون من السياسية؟

بعد مرور عامين على الثورة يمكننا أن نلحظ النقلة النوعية التي خلفتها السياسة على الإسلاميين؛ فأول رئيس للجمهورية هو عضو مكتب إرشاد جماعة "الإخوان المسلمين"، وأكبر حزب سياسي في مصر راهنًا هو حزب "الحرية والعدالة" الذراع السياسي للجماعة، كما أن القوى السلفية صارت رقمًا مهمًّا في معادلة السياسات المصرية؛ فثمة أحزاب سلفية كثيرة، أهمها -وهو ثاني أكبر حزب سياسي-: حزب "النور"، الذراع السياسي لـ"الدعوة السلفية".

انخراط الإسلاميين في السياسة دفع بهم إلى قلب المجال العام، بعد ما كانوا قابعين في الهامش؛ ولكن في المقابل فهذا الحضور القوي للإسلاميين في المجال العام يجعلهم منكشفين تمامًا أمام الرأي العام، بعد ما كانوا أشبه بسر، لا يسبر أغواره إلا الجهاز الأمني للنظام السابق.

ولكن هل مثّل هذا الحضور السياسي القوي نصرًا للإسلاميين؟

البعض قد يعتبر مجرد هذا الحضور بغض النظر عن نتائجه هو نصر بحد ذاته؛ ولكن في المقابل ثمة قطاعات عريضة من المنتمين للقوى الإسلامية عامة، ولم ينخرطوا رسميًا في العملية السياسية (بتكوين أحزاب سياسية) يرون أن هذا الحضور أشبه بـ"تقوى بلا مضمون"، فبحسبهم معيار التقييم هو: كم من الشريعة استطاع الإسلاميون أن يطبقوا حتى اليوم؟ واعتمادًا على واقع الحال سيكون الجواب: لا شيء. ثمة وجهة نظر أكثر تطرفًا لا ترى أن هذا الحضور السياسي لم يسهم في تطبيق الشريعة وفقط، بل ترى أنه أضر بعملية التطبيق هذه أيضاً؛ فمواقف الإسلاميين السياسية بحسبهم، نفس مواقف النظام العلماني السابق.

يبدو من هذا الاختلاف أن الصورة مشوشة بشدة فيما يخص تقييم الحضور السياسي للإسلاميين، من قِبل الإسلاميين أنفسهم والمنتمين لهم (بغض النظر عن وجه نظر عامة المجتمع، والقوى العلمانية المعارضة للحضور الإسلامي تمامًا).

ويرجع هذا التشويش في جزء منه إلى: غياب معايير محددة وواضحة لعملية التقييم، وفي جزء ثانٍ يرجع ذلك إلى تعدد الكيانات الإسلامية، وتنوع منطلقاتها الأيديولوجية (إخوانية، سلفية، وجهادية...)، وطبيعتها التنظيمية، مما يجعل من عملية بناء وجهة نظر موحدة تعبّر عن الإسلاميين أمرًا بعيد المنال.



وإذا أردنا أن نقدم رؤية تقيمية خاصة بنا، يمكننا أن نقف في منتصف الطريق، قائلين: لم يكسب الإسلاميون كل شيء، وكذلك هم عرضة لخسارة أي شيء، بمعنى أن انخراط الإسلاميين في السياسة هو مقامرة عالية الرهان؛ تضعهم أمام احتمالات متباينة، المكسب الضخم، والخسارة الضخمة.

ومحددات المكسب والخسارة موقوفة على عوامل شتى، تتعلق بطبيعة البيئة الداخلية التي يشتغلون فيها (سياسيًا واقتصاديًا)، وطبيعة علاقتهم بالفواعل الخارجية، وطبيعة علاقتهم مع عامة المجتمع.

وكل هذا يخضع لعامل الوقت، ولا يسوغ بناء تقييم معين اعتمادًا على موقف أو موقفين بنظرة عجلى؛ وإنما لابد من نظرة متكاملة تراعي مختلف الأبعاد التي يتضمنها حضور الإسلاميين في المجال السياسي.

ماذا غيّر الإسلاميون في السياسة؟

انطلاقًا من بحثنا في الطبيعة الجدلية لعلاقة التأثير المتبادل بين الإسلاميين والسياسة، يسوغ لنا أن نتسائل عن مدى التغيير الذي أحدثه انخراط الإسلاميين في السياسة، على السياسة نفسها، وذلك بالبحث في مستويين: الأول يتعلق بالتأثير على طبيعة الفعل السياسي نفسه. والثاني ينصرف إلى التأثير على طبيعة السياسات الداخلية والخارجية المصرية:

١-السياسة العلمانية: امتناع الأسلمة راهنًا.

يمكن اعتبار اللحظة "الميكيافيلية"، هي لحظة تدشين نمط معين من الممارسة السياسية والتنظير السياسي؛ فمبحث السياسة منذ أفلاطون وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كان يتم تناوله ضمن المباحث الأخلاقية ومباحث المُثل والقيم، حتى جاء فيلسوف "فلورنسا" (مدينة إيطالية) "نيكولا ميكيافيلي" (1527-1469)، وأخرج السياسة من السياق الأخلاقي، ونزع عنها الغلالة الدينية والقيمية، ليؤسس لطابع واقعي للسياسة، متعلق بالأرض لا السماء، يبحث عن المصالح، ولا يفتش عن المثل والأخلاق. ولعل كتاب "الأمير" (طبع بعد موت "ميكيافيلي" بخمس سنوات)، وهو بمثابة هدية كان قدمها لأمير "فلورنسا" "لارونزو دي ميدتشي"، ينصحه فيه بالممارسات التي تعينه على تقوية سلطانه و إرساء دعائم حكمه.

فصل الفعل السياسي عن القيمة الدينية والأخلاقية، بحيث يكون تحقيق المصلحة السياسية مطلقًا، لا يخضع لأي رقابة قيمية، ولا تخضع الوسائل المستخدمة في تحقيق هذه المصلحة بالتبع لأي معيار أخلاقي أو ديني -هذا هو جوهر العلمانية السياسية.

ومذ ذلك الحين وحتى الراهن انبنى علم السياسة، وكذلك انبنت الممارسة السياسية، على هذه الواقعية، وعليها تأسست الدولة القومية الحديثة، التي تمثل آخر شكل من أشكال التنظيمات السياسية، والتي تشكل النظام الدولي الراهن.

إذن الممارسة السياسية من خلال نظام الدولة الحديثة والنظام الديمقراطي هي ممارسة علمانية مستقرة، وتخبر عنها طبيعة السياسات الدولية الراهنة بوضوح (يمكن النمذجة مثلًا بموقف القوى الدولية والإقليمية، من الثورة السورية).

والسؤال الذي لا مناص من مجابهته الآن :

هل انخراط الإسلاميين في الممارسة السياسية سينتج عنه تغيير في الطبيعة العلمانية للممارسة السياسية عبر نظام الدولة الحديثة، والنظام الدولي الراهن؟

ذكرنا آنفًا أن هدف الإسلاميين هو تطبيق النظام السياسي الإسلامي، من خلال الوصول للسلطة السياسية.

ولكن لو تدبرنا في مقولة "النظام السياسي الإسلامي"، بما تتضمنه من بنية نظرية: ولي الأمر، البيعة، الشورى، أهل الحل والعقد، الخلافة الإسلامية، الجهاد، تنفيذ الحدود، ...إلخ، بغض النظر عن تفاصيل الاختلافات الإسلامية ومدارس الفكر السياسي الإسلامي المعاصرة والدراسات النقدية المتعلقة بمقولة "النظام السياسي الإسلامي" يمكننا أن نسأل:

هل الإسلاميون يصدرون في ممارساتهم السياسية منذ الثورة وحتى الراهن من هذه المقولات؟

تدبُّر الخطاب السياسي للقوى الإسلامية ينبئنا أن الجواب هو: "لا".

هل يعني ذلك أن الإسلاميين قد تخلوا عن ذاك الهدف المتعالي: "إقامة النظام السياسي الإسلامي"؟

لا يمكننا أن نجيب بـ"نعم"، ولا بـ"لا" أيضًا، إذن ماذا نقول؟



ما يحدث أن الإسلاميين باشتباكهم الفعلي مع البيئة السياسية، تبين لهم أن الأمر مختلف عن الجلوس في المسجد لشرح كتاب "السياسة الشرعية" لـ"شيخ الإسلام"؛ فثمة مسافة واسعة بين قراءة المعتمد السياسي السني، في كتب الفقه، وبين السقوط في بيئة سياسية غاية في التعقيد.

هذا الوضع أثمر نوعًا من أنواع الواقعية في الممارسة السياسية للإسلاميين؛ واقعية تُرجئ الحديث عن المقولات السياسية الكلية القارة في الكتب، والانغماس في الآن والراهن، والتعامل مع السياسة بطريقة يوم بيوم.

إذن مع عدم الإقرار بأن الإسلاميين قد تخلوا عن الحلم الأبدي (الخلافة)، إلا أنه يجوز لنا أن نتخيل أنهم قد أدركوا مدى "مثالية" هذا الهدف، وأدركوا مدى تعقيد الواقع السياسي الذي يشتغلون فيه، ومن ثم تمت عملية "تغييب" لا إرادي للمقولات السياسية الكبرى هذه، والتركيز على ما هو جزئي وراهن، ربما أدركوا مدى صعوبة تضمين خطابهم السياسي هذه المقولات، وقرروا التوقف عن التنظير للدولة الإسلامية المنشودة، التي يسمها "د. وائل حلاق" بـ"الدولة المستحيلة" [عنوان كتاب صدر له مؤخرًا، وهو أكاديمي مسيحي مرموق، من أصول فلسطينية، له ثلاثة كتب عن تاريخ الفقه الإسلامي، يكسر فيها الصورة النمطية للدراسات الاستشراقية عن الشريعة الإسلامية. وهي مترجمة وصادرة عن دار المدار الإسلامي].

غياب المقولات الكلية هذه من الخطاب السياسي للإسلاميين لا ينفي صدورهم في بعض المواقف السياسية عن محددات شرعية (يمكن النمذجة بموقف السلفيين من العلاقات المصرية - الإيرانية).

ولكن هذا ليس محل بحثنا، إذ ما نحن بصدده هو:

صدور الإسلاميين في فعلهم السياسي في كليته، عن رؤية ناجزة تهدف إلى تبديل الطبيعة العلمانية، التي تحكم الفعل السياسي الراهن، في ظل نظام الدولة القومية الحديثة.

مما سبق تبين أنه ليس في الميسور أسلمة الطبيعة العلمانية للممارسة السياسية الراهنة، وذلك يرجع في جزء منه لشرط نشأة الدولة القومية الحديثة، وصيرورة تطورها عبر التاريخ؛ إذ إن الطبيعة العلمانية تشكل أساسًا تنبني عليه [يمكن مراجعة أطروحات الفيلسوف المغربي "طه عبد الرحمن"، المتعلقة بهذا السياق، في نصه "روح الدين" الصادر عن المركز الثقافي العربي] وفي جزء آخر يرجع ذلك إلى عدم تقديم الإسلاميين رؤية سياسية قابلة للتطبيق، يمكن أن تحل محلها، سواء إذا كان ذلك بسبب قصور تنظيري واجتهادي لدى الإسلاميين، أو بسبب طبيعة الشريعة الإسلامية، التي تأبى الاختزال في بنية قانونية صلبة (جادل بهذا "وائل حلاق" في كتابه الأخير: "الدولة المستحيلة").

٢- السياسات المصرية: إرث صعب التجاوز.

أسلفنا القول إنه ثمة مستويان نستكشف من خلالهما طبيعة التغير التي يمكن للإسلاميين أن يُحدثوها في الممارسة السياسية.

- الأول وقد تناولناه، يتمثل في طبيعة الفعل السياسي نفسه، في ظل النظام الدولي الراهن.
- أما المستوى الثاني فيتعلق بطبيعة السياسات الداخلية والخارجية لمصر.

لو تدبرنا أولًا في السياسات الداخلية سنظفر بالآتي:

فيما يخص السياسات الداخلية -ونقصد بها مجمل الأوضاع المجتمعية التي يمكن للدولة أن تؤثر فيها؛ كالوضع الثقافي، والوضع الإعلامي، والوضع الاقتصادي، والجهاز البيروقراطي للدولة- فليس ثمة تغيرات جذرية قد أحدثها الإسلاميون فيها، منذ الثورة وحتى الراهن. ويرجع ذلك في جزء منه إلى عدم تمكن الإسلاميين من إحكام قبضتهم على أجهزة الدولة التنفيذية؛ إذ إن المعارضة العلمانية تقف بالمرصاد لأية خطوات يخطوها الإسلاميون في هذا السبيل، رافعين راية "ضد أخونة الدولة". وفي جزء ثانٍ يرجع ذلك إلى عدم صياغة الإسلاميين لاستراتيجية متكاملة لعملية التغيير هذه.

ولو تدبرنا ثانيًا في السياسات الخارجية، فسنظفر بالآتي:

كما هو الحال في السياسات الداخلية لم تطرأ أية تغيرات مؤثرة على طبيعة السياسة الخارجية المصرية، منذ الثورة وحتى الراهن؛ فالعلاقات مع الولايات المتحدة والغرب عامة لم تتبدل، بل ظلت متسمة بقدر كبير من الصلابة (لدرجة أنه صار من الطبيعي أن نسمع عن دعم الولايات المتحدة للإخوان).

وكذلك لم يطرأ بالتبع تغيير على العلاقة مع إسرائيل. وبالنسبة لإيران فمع أول محاولة لفتح باب العلاقات معها ثارت ثائرة القوى السلفية، وماتت فكرة التقارب مع إيران في مهدها.

ويرجع عدم التغيير هذا في جزء منه إلى وقوع مصر في دائرة استراتيجية مهمة للولايات المتحدة، تتمثل بالتحديد في الحفاظ على أمن إسرائيل. وفي جزء ثانٍ يرجع ذلك إلى طبيعة الانشغال بالبيئة الداخلية لمصر، خاصة المشاكل الاقتصادية.

هذا وثمة ما يجب التوكيد عليه في هذا السياق: **يبدو أن الإسلاميين قد تعلموا الدرس الذي يشرح كون الولايات المتحدة لن تقبل بالإسلاميين حتى يفصحوا عن عزم لا ينكسر على الالتزام بالعملية الديمقراطية، والتعددية السياسية.**

وعليه لابد من تقديم خطاب سياسي يبعث على الطمأنينة، ويؤكد صلاح نية الإسلاميين، تجاه الديمقراطية، وتجاه إسرائيل.

إذن فيما يخص هذا المستوى من التغيير في طبيعة السياسات المصرية لم نشهد أية تغيرات جذرية، مبنية على منطلق شرعي.

نخلص إذن أن الإسلاميين لم يستطيعوا أن يغيروا في طبيعة الممارسة السياسية -بمستوييها- منذ الثورة وإلى الراهن. ولكن في المقابل، هل كانت فرصة السياسة في إمكان تغيير الإسلاميين أوفر؟ أم أنها هي الأخرى قد عجزت عن إحداث تغيير؟

ماذا غيرت السياسة في الإسلاميين؟

التدبر في طبيعة الإسلاميين منذ الثورة وحتى الراهن ينبئنا بأن انخراطهم في الممارسة السياسية قد أحدث فيها بعض التغيرات المهمة، والتي يمكن الإشارة إليها كالتالي:

-تمت عملية "تسيس" كاملة للمنتمين للحركات الإسلامية (فضلًا عن انخراط معظم الكيانات الإسلامية في العمل السياسي، خاصة القوى السلفية)؛ بمعنى أن ثمة اهتمام مبالغ فيه من قِبل هؤلاء المنتمين (خاصة الشباب) إما بالانضمام إلى حزب سياسي، أو حركة سياسية مباشرة. كذلك يتبدى هذا الاهتمام في زيادة نسبة "الكلام السياسي" في مجال التداول (يمكننا النمذجة على ذلك بمدى حضوره في مواقع التواصل الاجتماعي المختلفة). ثمة ميل شديد نحو متابعة كل ما يجري في المجال السياسي، والتعليق على الأحداث السياسية، واتخاذ المواقف السياسية، والتجرؤ على النقد والتحليل. هذا الاهتمام يمثل تحولًا أيدولوجيًّا جذريًّا؛ إذ كانت السياسة أشبه بـ"المحرمات" قبل الثورة، وبعد الثورة مباشرة انغمس الجميع في ممارسة سياسية كاملة (يتبدى هذا بوضوح في حالة السلفيين، أكثر منه في حالة الإخوان المسلمين).

-في مقابل هذا الاهتمام بالسياسي، قلت العناية بما هو دعوي، مقارنة بالأوضاع قبل الثورة، وقبل الانخراط في العمل السياسي. ثمة انقلاب جذري في درجة الاهتمام هذه، إذ كان العكس هو المتحقق قبل الثورة: الاهتمام بالدعوي على حساب السياسي.

حتى الحيز الدعوي الموجود حاليًا، يجري تسييسه هو الآخر؛ بمعنى أن مضمونه بدأ يُخترق بما هو سياسي (لو تدبرنا مثلًا في طبيعة الأسئلة التي تُقدم لداعية ما في محاضرة له، سنجد أن معظمها ذو طابع سياسي، وليس دعوي أو شرعي).

-انخراط الإسلاميين في العملية السياسية مع الوقت يعلمهم التحرر من (دوغمائية الأيديولوجيا)، ليتبنوا خطابًا مرنًا ومطاطًا، تجف فيه المضامين الشرعية، وتزدهر المضامين السياسية والمصلحية، ممارسة السياسة تلزمهم بذلك، فمثلًا لو تدبرنا التبريرات التي يقدمها حزب سياسي منطلق من (أيديولوجيا) إسلامية لموقف سياسي معين قد اتخذه، سنجدها مفعمة بلغة السياسة، بينما يغيب عنها أية مضامين شرعية.



غياب هذه المضامين الشرعية في بنية الخطاب السياسي للإسلاميين يقلل الفوارق بينهم وبين القوى السياسية العلمانية/المدنية، هذا يترتب عليه أن يفقد الإسلاميون خصوصيتهم، ويتحولون تدريجيًّا إلى قوى سياسية محضة، متحررة من المنطلقات الأيديولوجية.

-أثرت الممارسة السياسية في الإسلاميين أيضًا في الأبعاد التنظيمية؛ حيث دفعتهم للتمايز أكثر، بتشكيل الأحزاب والحركات السياسية المختلفة، مما يفصح عن الاختلافات البينية للإسلاميين. علمتهم الممارسة السياسية أن يكونوا أكثر تنظيمًا ومؤسسية؛ فمثلًا فرض وصول الإخوان المسلمين للحكم أن يعيدوا تنظيم أنفسهم بما يمليه الوضع الجديد؛ فثمة مؤسسة رئاسة سيكون لها أطر تنظيمية خاصة، تتطلب استحداث طرق جديدة في العمل، وثمة حزب سياسي كبير ينبغي أن تنضبط علاقته مع الجماعة الأم.

وكذلك الحال في الكيانات السلفية، إذ تعلمت أن قدرتها التنظيمية العالية ستسهم في تقوية حضورها السياسي (يمكن النمذجة بـ"الدعوة السلفية" التي يبدو أنها عزمت على بلورة كيان تنظيمي، يقارب التنظيم الإخواني).

مما سبق يتبين أن السياسة قد استطاعت أن تحدث حزمة من التغيرات (الأيديولوجية، الخطابية، والتنظيمية) في طبيعة الإسلاميين.

خلاصة

حاولت هذه الورقة أن تقارب طبيعة التأثير المتبادل بين الإسلاميين والممارسة السياسية، انطلاقًا من مهاد نظري ينبني على جدلية العلاقة بين الفكر والواقع؛ إذ جادل الباحث بأن ثمة علاقة تأثير متبادل بينهما، وأن علاقة التأثير لا تسير في اتجاه واحد، من الواقع إلى الفكر (ماركس)، أو من الفكر إلى الواقع (هيجل).

لبحث طبيعة التأثير المتبادل هذه بين الإسلاميين والممارسة السياسة، تناولنا الهدف المفترض من الممارسة السياسية للإسلامين، ثم قاربنا حدود الإنجاز الذي تحقق عبر هذه الممارسة حتى الراهن.

ثم انطلقنا لنختبر مدى صحة فرضية بحثية، تجادل بأن التأثير الذي أحدثته الممارسة السياسية في طبيعة الإسلاميين يفوق التأثير الذي أحدثه/سيحدثه الإسلاميون في طبيعة الممارسة السياسية. وقد قدمنا تحليلًا يؤكد صحة هذه الفرضية، فطبيعة الدولة القومية الحديثة انبنت على أسس علمانية، صاحبتها منذ التأسيس حتى النظام العالمي الراهن. والمشاركة السياسية عبر هذا النظام من العسير أن تتجاوز هذا الطابع العلماني.

ومن ناحية ثانية لا يملك الإسلاميون نظرية سياسية مغايرة تتأسس على بنية إسلامية، يمكن أن تحل محل الممارسة السياسية العلمانية، ومن ثم نجدهم قد انخرطوا بكل ما أوتوا من قوة في العملية الديمقراطية، بلا أية استراتيجية تتقصد تغيير الطابع العلماني للممارسة الديمقراطية.

وعلى أساس هذين السببين: **طبيعة النظام السياسي الراهن، وقصور الإسلاميين، سيكون عسيرًا أن تنتج ممارسة الإسلاميين للسياسة تغيرًا في طبيعة الفعل السياسي.**

وكذلك الحال في طبيعة السياسات المصرية، الداخلية والخارجية، سيكون من العسير أيضا إحداث أية تغيرات جذرية فيها، نظرًا لمكانة مصر (الجيو-استراتيجية)، ولعدم بلورة الإسلاميين لسياسة خارجية واضحة، لانشغالهم بالوضع الداخلي، والأزمات الاقتصادية.

من هنا يبدو أن الإسلاميين بحاجة للتمرن على "خيبة الأمل" من إمكان إحداث تغيرات جذرية على طبيعة الفعل السياسي ذاته، والسياسات المصرية، بفضل مشاركتهم في العملية السياسية.

وعليه: **على الإسلاميين أن يضعوا حدودًا لما يمكن أن يكسبوه، وكذلك ما يمكن أن يخسروه من المشاركة السياسية.**

وفي سياق حسابات المكسب والخسارة هذه ينبغي التوكيد على أن ربط الممارسة السياسية بإمكان تحقيق ما يُسمى بـ"المشروع الإسلامي" بتطبق شرع الله في المجتمع المصري -أمر لا بد من الحذر منه.

ومن ثم يلزم الإسلاميين تقديم تنظير سياسي قوي، يفسر مشاركتهم في العملية السياسية؛ ببيان مدى فاعليتها في تحقيق مشروعهم الإصلاحي المتكامل، الذي هو دعوي بالأساس.



وأخيرًا ينبغي أن يحذر الإسلاميون من "علمنة" الممارسة السياسية الإسلامية، بعد تواضع الأمل في "أسلمة" الممارسة السياسية العلمانية، حتى لا تكتمل "خيبة الأمل".



التجربة الإسلامية السودانية نموذج لم يكتمل

محمد توفيق

لعل من الواضح في سياقات الحالة السياسية السودانية المعاصرة أن بنيتها (السوسيو-سياسية) منذ نشأتها المستقلة إلى الآن تتسم بطبيعة التقلب والاضطراب المستدام، وذلك ينسحب على حالة مختلف التوجهات و(الأيديولوجيات) التي وصلت كياناتها لسُدة الحكم، بيد أن ما يعنينا هنا هو استكناه مآلات حقبة ما بعد الثورة الإسلامية -ثورة الإنقاذ- وتحليل مضامينها وتقييم نتائجها للخروج بتصور موضوعي عن تلكم التجربة.

الجدول التالي يوضح الأحداث السياسية المتعاقبة على النظام السياسي السوداني في العصر الحديث [بتصرف من "تاريخ السودان المعاصر"، روبرت أو. كولينز، و"التطورات السياسية في السودان المعاصر 2009-1953 دراسة تاريخية ووثائقية"، د. سرحان غلام، و"السودان"، ممدوح عبد المنعم]:

الحدث	التاريخ
الحكم التركي - المصري	1821
الثورة المهدية	1899-1885
الحكم البريطاني - المصري	1956-1899
بداية النظام البرلماني (الأزهري ، عبد الله خليل)	1956
مسودة دستور إسلامي مقدمة من الأحزاب الإسلامية (المحاولة الأولى)	1957
انقلاب عسكري (الفريق إبراهيم عبود)	1964-1958

محاولة انقلاب عسكري (العميد محي الدين أحمد)	مارس 1959
محاولة انقلاب عسكري (العميد عبد الرحيم شنان)	مايو 1959
محاولة انقلاب عسكري (المقدم علي حامد كبيدة)	نوفمبر 1959
الثورة الشعبية (حكومة سر الختم)	1964
مسودة دستور إسلامي (المحاولة الثانية)	1968-1967
انقلاب عسكري (نميري) بداية " النظام المايوي "	مايو 1969
محاولة انقلاب عسكري (الرائد هاشم العطا) حيث تم القبض على نميري لأيام ثم عودته لسدة الحكم ثانية	يوليو 1971
بداية تحول نميري نحو الإخوان المسلمين	1971
محاولة إدخال الدين في الدستور	1973
محاولة انقلاب عسكري (العقيد حسن حسين)	سبتمبر 1975
محاولة انقلاب (صادق المهدي - الشريف الهندي - مجندي الفيلق الإسلامي - الأنصار في دارفور) يقال إنه مدعوم من ليبيا والاتحاد السوفيتي وبمساعدة الإخوان المسلمين	ربيع 1976
بداية تطبيق الشريعة (محاكم العدالة الناجزة)	سبتمبر 1983
محاولة كتابة دستور إسلامي	1984
إضراب عام وسقوط نميري ونفيه إلى القاهرة	إبريل 1985
حقبة الصادق المهدي (تعاقب خمس حكومات)	1985
انقلاب البشير (ثورة الإنقاذ) وإيقاف العمل بدستور 1986	يونيو 1989
جعل الشريعة في الدستور هي المصدر الوحيد للتشريع	1998

والحاصل أن التجربة السودانية لتطبيق الشريعة تتقاطع فيها عدة جوانب سياسية واجتماعية وقانونية وشرعية، وكما تقتضي مسالك التحليل المنهجي فإنا نتخذ جملة من الأدوات المنهجية ما قبل التحليلية لتقييم التجربة وهي كالتالي:

- توصيف الحالة:

تجربة تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان هي ظاهرة فكرية وسياسية بالأساس، لكنها تتقاطع بشكل كبير مع مجالين آخرين، أحدهما المجال القانوني والآخر المجال الفقهي.

ويتداخل معها ضمنيًّا في المجال السياسي علم الاجتماع السياسي وعلم النفس السياسي، وفي المجال القانوني الفقه الدستوري، وفي المجال الفقهي علما أصول الفقه والقواعد الفقهية.

ففي المجال السياسي تتعلق الظاهرة بالسلطة الحاكمة ونوعها وممارساتها وبنيتها الهيكلية والذاتية وفلسفتها و(أيديولوجيتها)، وكذا الطبقة المحكومة ونوعها وتفاعلاتها مع السلطة ودرجة وعيها السياسي وفوارقها الإثنية وتركيبتها العرقية.

بينما في المجال القانوني، ينظر في المسار الدستوري الذي سارت عليه البلاد وصياغاته وصراعات واضعيه وردود أفعال معارضيه على مر التجارب المختلفة لوضع دساتير البلاد.

وعلى الجانب الفقهي، فإن علمي أصول الفقه والقواعد الفقهية يشكلان مرتكزًا أساسيًّا ترتكز عليه لجان صياغة الدساتير والقوانين، كما أنهما يمثلان منهجًا في الاستنباط والاستقراء والاستدلال لا يمكن بحال العزوف عنهما خاصة في أبواب الأحوال الشخصية والأسرة.

البنية المفاهيمية:



أ- النسق العسكري والمجتمع:

يُعنى هذا المفهوم بتفصيل العلاقة بين النسق الاجتماعي العسكري وتدخلاته في شئون المجتمع، والنسق العسكري يتمتع بثلاث مزايا أساسية تمايزه عن غيره من الأنساق الاجتماعية الأخرى وهي: التنظيم الدقيق، واحتكار القوة المتمثلة في الأسلحة والمعدات العسكرية، والدعم المادي الحكومي المتزايد.

وتأخذ علاقة النسق العسكري بالمجتمع عدة أشكال منها: النفوذ العسكري، والمشاركة السياسية، والضبط/التحكم العسكري فوق السياسي. بينما يتصف نوع التدخل العسكري تبعًا لمدى تداخلاته السياسية والاقتصادية في نظيراتها المجتمعية كالتالي:

نوع التدخل:	معتدل	وصي	حاكم
مدى القوة:	قوة معارضة	ضبط حكومي	حكم مسيطر
الأهداف السياسية والاقتصادية:	يبقون الوضع كما هو.	يبقون الوضع كما هو أو يصححون القصور أو يطبقون شيئًا جديدًا.	يؤثرون في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ويرتكز العسكريون على عدة أسباب تُسوغ تدخلاتهم في الشئون المجتمعية وهي كما يلي:

- أن الحكومة المدنية فشلت في تحقيق الأهداف التي يرجوها الشعب.
- أن الحكومة المدنية قامت بأفعال غير قانونية تتعارض مع المبادئ الدستورية.
- أن الجماعات القائمة تصرفت بما يهدد الأمن الداخلي للبلاد، وشجعت على العنف وعدم الاستقرار السياسي.
- أن الحكومة تبنت سياسات أدت إلى الانهيار الاقتصادي.
- أن الحكومة قد فشلت في تخطيطها لبرامج الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي.

ب- نظام الحزب الواحد:

في بعض الحالات تشبه الأنظمة الحزبية في العالم الثالث نظيراتها تلك في الغرب، حيث تقدم درجة من الخيار الانتخابي والمعارضة السياسية والمساءلة أمام الجهات المعنية، بينما ظهر نقيض ذلك في حالات أخرى وهو نظام الحزب الواحد والذي يعتبر انعكاسًا للشكل (الأوتوقراطي) للحكم، وتستمر حكومات بعض أنظمة الحزب الواحد في السلطة باستخدام أساليب عدة منها: التدخل في القضاء، ووسائل الإعلام، والتلاعب في الاقتراع، واستخدام العنف والإرهاب الأمني أو العصابي ضد المعارضين [بتصرف من "كيف نفهم سياسات العالم الثالث" ، ص 268–278 ، تأليف: بي.سي.سميث].

ج- أيديولوجيا الحزب:

في معظم أنحاء العالم الثالث تستمد الأحزاب السياسية -في حالة السماح لها أمنيًّا- (أيديولوجياتها) من الدين أكثر من الأيدويولوجيات الغربية ذات الطابع المادي، والتي كان من المتوقع أن تسيطر على السلطة في كثير من المجتمعات بعد الاستعمارية، جاءت هذه النتيجة محصلة لمحاولات الدول الاستعمارية (يدلل على فشل هذه المحاولات ولو بعد عشرات السنين إنتاجها لحالة "الاحتقان الإسلامي"، والذي آل إلى الحقبة "الإسلامية" ما بعد الثورية التي تعيشها دول الربيع العربي الآن) نشر الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية في الدول التي غادرتها، وذلك بهدف إبقاء مصالحها هناك. [بتصرف من "كيف نفهم سياسات العالم الثالث" ، ص263–262]

د- النخب والطبقة:

في الحالة السودانية يتمظهر هذا المفهوم بشكل واضح من خلال محاولات الحكومة معالجة الميول الانفصالية للجنوب من خلال تحالفات ومعاهدات مع النخب الجنوبية؛ وذلك بغية احتواء أية جنوح نحو الانفصال، ويعنى المفهوم بتوافر عوامل القوة الاقتصادية والسياسية لنخب الأقلية، التي بدورها تتحكم من خلال هذه العوامل في حجم المكاسب التي يمكن جنيها من الحكومات القومية.

هـ-الاستقرار وعدم الاستقرار السياسي:

تستخدم جملة من المؤشرات لتبين كلتا الحالتين في النظام السياسي منها: تغير الفواعل التنفيذيين داخل النظام، وعدد الوفيات الناتج عن عنف المجموعات الداخلية لكل مليون نسمة، والعدد الإجمالي لأحداث العنف، ومتوسط أعمار الحكومات ومدى دستورية قراراتها، والانقلابات والعنف الانتخابي والاغتيالات السياسية. [السابق، ص 431-433]

تحليل التجربة:



حكم العسكر السودان أكثر من ثلاثين عامًا، بينما لم يتجاوز مجموع أعمار الحكومات المدنية العشر سنوات، وهذا يمثل دلالة قوية على الطبيعة الغالبة للسلطة الحاكمة في السودان، والتي يغلب عليها النسق العسكري على الطابع المدني، ومن ثم فإن السلطة العسكرية الحاكمة تتخذ مستويين من مستويات تدخل النسق العسكري في الشأن المجتمعي؛ أحدهما: مستوى النظام الوصي، والآخر: مستوى النظام الحاكم.

بيد أن ثورة الإنقاذ أنتجت نوعًا جديدًا من السلطات التي يمكن وسمها "بالسلطة الفكرية أو المرجعية" والتي تمثلت في الدكتور حسن الترابي، وبما أن ظاهرة "عدم الاستقرار السياسي" كانت ملازمة -بمؤشراتها المعتبرة- للنظام السياسي السوداني منذ مهد استقلاله حتى ثورة الإنقاذ.. فكان من اللازم أن تستمر هذه السمة مع النظام الجديد بدرجة ما بعد الثورة؛ فالطبيعة (السوسيولوجية) للنسق العسكري المتمثل في عمر البشير ظلت متغولة بل ومحتكرة للشئون المجتمعية، وذلك بالشواهد التي ذكرناها آنفًا، ومثلت المرجعية الفكرية لحسن الترابي خطًّا موازيًا للسلطة؛ فتداخلت السلطات بشكل متشابك ومعقد، حتى آل هذا التداخل لانفصال الترابي عن التجربة/النظام، الأمر الذي عنى ارتباكًا مخلًا بمسار التجربة الإسلامية بالسودان. فالترابي مثَّل على طول الخريطة الفكرية السودانية وعرضها ركنًا ركينًا في عضد الحركة الإسلامية ["المدرسة الترابية بين السياسة والفكر وبين السودنة والعالمية الإسلامية .. التجربة والمصائر" المحبوب عبد السلام]، وتزايد أثره حتى بلغ منتهاه عقب ثورة الإنقاذ.

بينما تشير الدراسات ["الحكم الإسلامي من دون الإسلاميين"، عبد الوهاب الأفندي] إلى حالة الاضطراب في تصور المشروع الإسلامي خلال الأنظمة المتعاقبة، حيث يراه البعض ضمن مشروع الأممية الإسلامية، بينما يراه آخرون مشروعًا وطنيًّا ضمن الهوية السودانية.

وجاءت إشكالية "انصهار الحركة في الدولة" كظاهرة مستحدثة أنتجتها التجربة السودانية دونما سابقة لتزداد التجربة تعقيدًا، دلالة ذلك كانت في طريقة انعقاد المؤتمر السابع للحركة الإسلامية السودانية أغسطس 2008م، والأجواء الروتينية التي سادته والنتائج المتوقعة لأعماله، وراحت الانتقادات من داخل الحركة ومن خارجها تتراكم على خلفية المؤتمر، يصف ذلك الدكتور عبد الوهاب الأفندي قائلًا: "هناك إسلاميون ولكن ليست هناك حركة إسلامية؛ بل وليست هناك حركة من أي نوع، وما نراه الآن هو جهاز حكومي لا أكثر". وأضاف أنه من غير المعقول أن يتداول خمسة آلاف فرد شؤون الحركة في ثلاثة أيام فقط، وهذا الرأي يجد ذيوعًا بين المنتسبين السابقين للحركة الإسلامية؛ إذ يرون أن الحركة قد أصبحت تابعة للدولة منذ خروج الترابي في 1999م. ["مراجعات الحركة الإسلامية السودانية" ، ص 86-85]

ويضاف في إطار المجال السياسي لتحليل التجربة موقفها من الديموقراطية وكيفية التعاطي معها، وهنا يُسأل الترابي عن موقفه من الديموقراطية فيجيب:



"إن هدف الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية العودة بالأمة إلى نقاء المجتمع الأول، والانتقال بها من التمزق والشتات إلى الوحدة والانسجام... ولو نزلنا إلى النظام السياسي فهو تقريبًا محاولة للربط والبدء بما هو ابتلاء وقدر من تباين المناسك والأعراف، ورد إلى أصل الوحدة بالدين لا بوسيلة القهر"

ويقول أيضًا:" أي داعٍ لكي يقلد المسلمون هذه الصور، وأن يخجلوا من رفضها مهما كانت التسميات جذابة أو سائدة مثل الديموقراطية أو التعددية الحزبية؟ كل هذه النظم لا تعبر عن مضمون الإسلام وهو التوحيد والنظرية التوحيدية السياسية، ولكن الذي يعبر عنه هو نظام يقوم أولًا على الإيمان منطلقًا من سيادة الشريعة كدستور في الحياة السياسية العامة، وثانيًا على الحرية رمزًا لعقيدة التوحيد؛ حيث ينبغي أن يكون كل فرد متجردًا لله".[السابق، ص 97-96]

ويقول أيضًا: "وقد تنتهي الديموقراطية إلى أن تكون شعارًا وحسب، تبدو صورها في الأشكال والتقريرات الدستورية، والواقع السياسي يكذب ذلك، ذلك أن الدستور بصوره وزخارفه المشهورة غدا زينة دولية، وما من دولة تريد مكانًا في محافل العالم ووجاهة في أسواق الدعاية الدولية إلا لزمها أن تتزيًا علَمًا ونشيدًا وشعارات ديموقراطية، وتتخذ المراسم والهيئات التي تشارك في اتحاد البرلمانات الدولية ولجان حقوق الإنسان ونحو ذلك من الكيانات التي تمثل الديموقراطية ..

خلاصة المقصود أن الموقف الأوفق من استعمال الكلمات الوافدة رهن بمجال العزة والثقة أو الحذر والفتنة، أما وقد تجاوزنا مرحلة الغربة وغلبة المفهومات الغربية بكل مضامينها وظلالها فلا بأس من الاستعانة بكل رائجة تعبر عن معنى، وإدراجها في سياق الدعوة للإسلام، ولفّها بأطر التصورات الإسلامية حتى تسلم لله وتكون أداة تعبير عن المعنى المقصود بكل أبعاده وملازماته الإسلامية، عندئذ يقال إن المعاني أهم من المباني أو العبرة ليست بالصور والألفاظ إنما بالمعاني والمقاصد". ["في الفقه السياسي الإسلامي"، ص145-140، د.حسن الترابي].

وبتحليل مضمون النقول السابقة يستبين لنا عدة أمور:

- المضمون الإسلامي الصريح والأصيل.
- البنية المنطقية والأصولية الصحيحة جزئيًا.
- التباين مع الواقع المحيط عالميًا؛ فانتقال الترابي من مرحلة الغربة إلى مرحلة العزة يمكن اعتباره "انتقال شعوري"، لم يكن له على أرض الواقع ثمة دلالات.

كما أن هناك ثمة إشكالية فكرية مثلت عائقًا كبيرًا أمام التجربة الإسلامية السودانية، وهي استصحاب "التصور اليقيني" داخل العقل الإسلامي السوداني، والذي يعني إطلاق الصواب على كل ما في جعبة الحركة الإسلامية من فكر وطروحات، مما يستلزم شيئًا من الإقصاء لما دونها/لمعارضيها، الأمر الذي استتبعه ممارسات ومواقف شانت التجربة برمتها. وهنا يصفها الطيب صالح (أديب وروائي سوداني معروف، والنقل من "وطني السودان"، ص184) قائلًا: "إن النظم اليقينية دائمًا تجيء بخارطة جاهزة للمستقبل، لا نستطيع إنجازها بطبيعة الحال، إنما يحدث شيء مختلف كلية".

أما ما يتعلق بالبنية الفكرية وما تتطلبه من تأصيل وتنظير، ولزوم اتسامه بالإحكام والشمولية والواقعية والتجدد والتفاعل مع الواقع بشكل دائم؛ فقد حازت التجربة الإسلامية السودانية قدرًا من التميز والريادة فترة من الزمن، ثم ضعفت بفعل "ضرورات الدولة" التي أصبحت غلّابة؛ فالقائمون على التأصيل والتنظير شغلوا بالواجبات اليومية للدولة، وخروج الترابي من منظومة الحكم زاد العبء الفكري التأصيلي على الحركة الإسلامية، وباتت التجربة تجابه نوازل فكرية وسياسية تتهدد استقرارها واكتمالها.

وعلى الجانب القانوني والدستوري، فقد كانت التجربة السودانية في صياغة القوانين الإسلامية سباقة ورائدة، فجل التجارب والمحاولات التي سبقتها أو لحقتها لم تتجاوز طرح نماذج لدساتير إسلامية، ولم يكن هناك صياغات معمقة لنصوص قانونية تنفيذية كتلك التي في النموذج السوداني، إلا من مسودات وضعت بناء على رغبة رؤساء بعض الدول الإسلامية دونما تطبيق من الأصل، أو من غير تطبيق طويل المدى يتيح الفرصة لتفاعل القوانين مع مجتمعاتها، وبالتالي تعديل وتطوير الصياغات وسد الثغرات القانونية التي يمكن أن تظهر عند التطبيق، وهذا الذي فاقت به قوانين السودان غيرها من القوانين.

كما أن مشاريع الدساتير الإسلامية الأربعة التي طرحت في عمر البناء الدستوري للسودان قد أعطت شيئًا من الخبرة لواضعي تلك المشاريع، الأمر الذي أضفى مزيدًا من الإحكام الدستوري على الدستور الإسلامي هناك.

وعلى الجانب الفقهي، تظهر في صياغات القوانين الإسلامية متانة أصولية وفقهية تميزت صياغاتها بالآتي [مستفاد من مقدمة "تطبيق الشريعة في السودان بين الحقيقة والإثارة"، د. المكاشفي طه، ص14]:

- كسر طوق المذهبية والتقيد بمذهب معين والأخذ بالاجتهادات التي تلبي حاجات العصر.
- سهولة تناول الأحكام وتطبيقها بعد صياغتها في شكل مواد؛ لأنه يصعب على القاضي ويشق عليه أخذ الحكم في المسائل المبعثرة في بطون كتب الفقه العديدة، وهذا مما تميزت به قوانين السودان حيث كانت الصياغات القانونية المبنية على القواعد الفقهية والأصولية والموزعة على جل الأبواب القانونية سباقة لتغطية الحاجات القانونية المختلفة.
- إزالة الاضطراب والفوضى والغموض في الأحكام المختلفة، فقد يأخذ قاضٍ بقول راجح ويأخذ آخر بقول مرجوح، فمن هنا يحدث الاضطراب في الأحكام في المنطقة الواحدة وقد يحدث في الواقعة الواحدة، وهو ما استدركته القوانين السودانية.
- توفير الوقت للقاضي والمتقاضين؛ حيث تكون السرعة في البت في المسائل المعروضة نسبة لسهولة الحكم، مع معرفة الأحكام ووضوحها للناس.

وعلى سبيل المثال نجد في "قانون الأحوال الشخصية للمسلمين لسنة 1991 م" جملة من المبادئ الفقهية التي يستصحبها القاضي عند تطبيق القانون:

أ. الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا، أو حرم حلالًا.

ب. اليقين لا يزول بالشك.

ج. الأصل:

أولًا: بقاء ما كان على ما كان.

ثانيًا: براءة الذمة.

ثالثًا: في الصفات العارضة العدم.

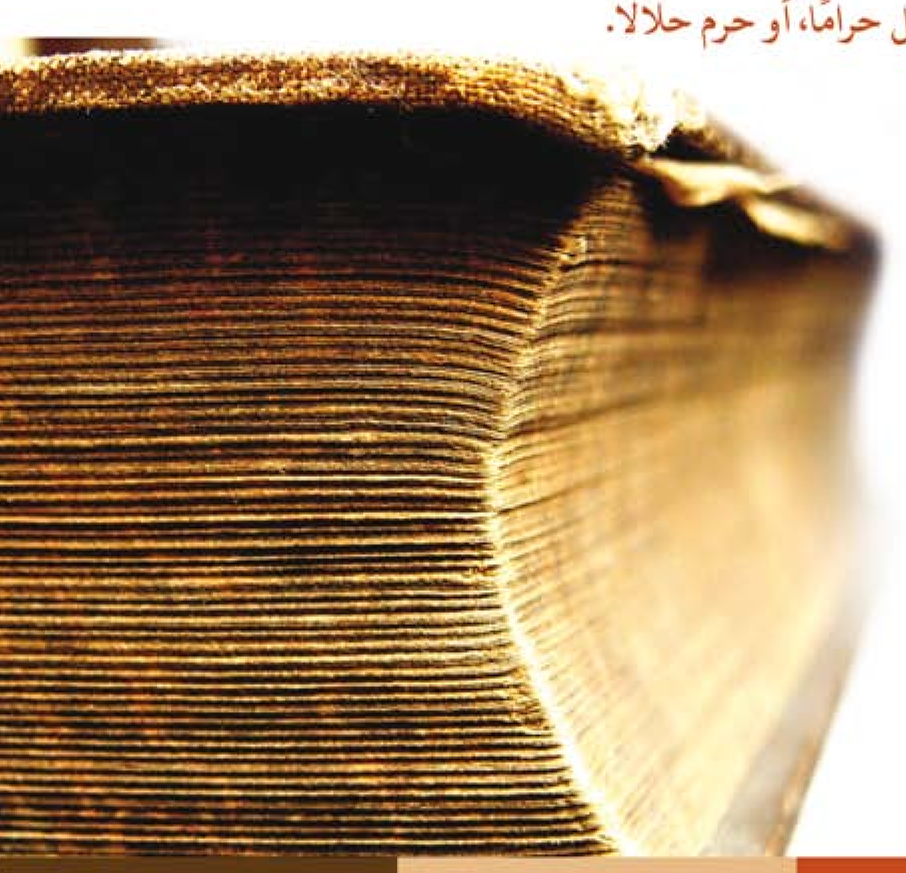
د. العادة محكّمة.

هـ. الساقط لا يعود.

و. التصرف على الرعية منوط بالمصلحة.

ز. إعمال الكلام أولى من إهماله.

ح. ذكر بعض ما لا يتجزأ كذكر كله.



ط. لا ينسب إلى ساكت قول، لكن السكوت في معرض الحاجة بيان.

ي. الإشارات المعهودة من الأخرس كالبيان باللسان.

ك. من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

ل. من سعى في نقض ما تم من جهته فسعيه مردود عليه.

م. الضرر يزال.

ن. يستعان بأهل الخبرة في معرفة السلامة والأهلية وعوارضهما. [للمزيد من نصوص القوانين السودانية راجع موقع "قوانين السودان" وموقع "الموسوعة السودانية للأحكام والسوابق القضائية"]

فمن حيث الجملة، احتوت القوانين الإسلامية على جملة من القواعد الفقهية والأصولية تدلل بوضوح على البنية الإسلامية المتينة لهذه القوانين، كما أن فروع القوانين وفصولها قد لاقت ذات الخدمة، وكذا جل الأبواب والفصول التي تم استخدام المصطلحات الشرعية فيها بشكل متوائم مع الواقع ودونما مفارقات إلى حد كبير.

والخلاصة أن التجربة السودانية في تطبيق الشريعة بمجالاتها الثلاثة السالفة الذكر قد واجهت معوقات داخلية وخارجية آلت مجتمعة إلى عوزٍ بيّن في بناء التجربة، الأمر الذي جعل التجربة منقوصة حتى يومنا هذا، بالإضافة لطبيعة الممارسات السياسية والاجتماعية للحكم العسكري، والذي تغلّب -بحكم خصائص نسقه (السوسيولوجي)- على الطبيعة الإسلامية؛ في تطبيق العقوبات، وتغيير المنكرات، وسلوك طرق التوجيه والإرشاد والمتسمة بالرأفة واللين والمرونة.

كما أن الشتات الذي دبَّ في صفوف الحركة الإسلامية ساعد بقوة على تأخرها وتأخر مشروعها الإسلامي في السودان.



رفقاً بالعلماء

البشير عصام

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فإن علماء الشريعة هم ورثة الأنبياء، يقومون مقامهم في تبصير الناس بمواقع الغواية، وإنارة الطريق إلى معارج الهداية. حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، بل من حاجتهم إلى الهواء الذي به قوام حياتهم؛ إذ حفظ الأديان مقدم على حفظ الأبدان. وأثرهم في سلوك الأمة على طريق الفلاح، كأثر الحادي الذي يبث الحماسة في النفوس، والهادي الخرّيت الذي يجنّب القافلة السالكة أن تضل الطريق!

ومن هنا كان احترامهم من احترام ما يحملون من العلم الشريف، دون إفراط ولا تفريط. وإن يقع منهم الخطأ - وهو وارد عليهم اتفاقا - فليكن النقد البناء، لغرض الإصلاح والتقويم، لا للهدم والتشفي!

عين السخط

إلا أن كثيرًا من المنتقدين صاروا يمارسون "هواية" النقد المنهجي، الذي لا يبقي من كرامة العلماء ولا يذر، ولا يعرف لغلطهم - إن ثبت - تفسيرًا، ولا يقبل منهم عذرًا.

فمهما يوجدْ من عيب في السياسة أو المجتمع أو التعليم أو الأخلاق أو غير ذلك يكن سببه العلماء .. وكلامهم إن تكلموا .. وسكوتهم إن سكتوا!

وعين السخط التي تبدي المساوئ وتضخمها تترصد العالم المسكين في كل حركة أو سكنة:فإذا ضحك، قالوا: كيف تضحك والأمة تذبح؟ وإذا عبس، قالوا: تنفير الناس قبيح، يا شيخ!

وإذا تكلم في أحداث السياسة، قالوا: ذاك مستنقع آسن، كيف تلجه؟ وإذا هجرها، قالوا: فقيه حيض ونفاس!
وإذا أفتى في كل نازلة، قالوا: عنده إسهال في الفتوى. وإذا سكت عن بعض القول، قالوا: خان المسلمين عند الحاجة إليه!

وإذا تكلم في العقائد، قالوا: مالك تحيي رميم الخلافات والطوائف! وإذا تكلم في غير العقيدة، قالوا: التوحيد أولًا، يا شيخ!

وإذا استعمل وسائل الدعوة الحديثة، قالوا: هذه صبيانيات، وتشبه بالكفار. وإذا استمر على دروسه بالطريقة القديمة، قالوا: جامد كالحجر الصلد!



ومن المعلوم أن رضا الناس غاية لا تدرك!

ومن محاسن الإسلام أنه لا يعترف بتراتبية كهنوتية، تحتكر الكلام في الدين، وإنما فيه شرط الضبط المعرفي الذي لا بد منه قبل الخوض في مباحث الدين. وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يمنع هؤلاء المنتقِدين من طلب العلم، وتسنم أعلى مراقيه، ليصنعوا ما لم يصنع هؤلاء المنتقَدون؟

إن العلماء ليسوا معصومين من الأخطاء، فإن وقعت منهم معصية أو غلط فلا ينبغي تضخيمها، والتهويل فيها، وإسقاط العالِم رأسًا بسببها.

والعلماء إنما هم نتاج بيئتهم، و(كما تكونوا يكن علماؤكم)!

تقديس الماضي

ومن هنا فإن علماء اليوم لا يمكن مقارنتهم بعلماء العصور السالفة، لأن الجو الإسلامي العام في الأمة كلها ليس على مثل ما كان عليه أمس.

إلا أن النظرة المثالية لكل ما هو من الماضي - بسبب التردي الشديد في أحوال الحاضر - لا ينبغي أن يجعلنا ندخل ضمن المسؤوليات التي يطالب العالِم بالقيام بها بعضَ الأشياء التي لم يكن علماء الماضي يضطلعون بها إلا على سبيل الندرة - خلافًا لما يظن.

إن كثيرًا من الناس ينتقدون علماء اليوم بسبب تخاذلهم عن مكافحة الباطل المستشري - مع أن هذا عيب مشترك بين طبقات المجتمع كلها - بل بسبب قعودهم عن قيادة الحركة السياسية والاجتماعية في الأمة، ثم يحتجون على لزوم ذلك بمواقف بعض العلماء المتقدمين.

وهذه مغالطة، تنطلي على الذي يقرأ التاريخ بانتقائية، تعميه عن رؤية ما لا يود رؤيته!

لم يكن العلماء كلهم عبر التاريخ يجهرون بالحق المحض، ويقفون في وجه الباطل، ولم يكونوا كلهم - من باب أولى - يقودون حركة الناس، ويخوضون غمار السياسة لتغيير المنكر.

وحين يذكر المتحمسون موقف الإمام أحمد في محنة خلق القرآن، فإن التاريخ يذكر أن الجاهرين بالحق خلال تلك المحنة كانوا ثلة قليلة، وأن أغلب العلماء - ومنهم جهابذة لا نزال نعرف لهم أقدارهم - أجابوا كرهًا، وآثروا السلامة!

وحين يذكرون موقف شيخ الإسلام ابن تيمية في كائنة التتار، ويبرزون دوره في قيادة الجموع، فإن التاريخ يذكر أن أغلب علماء عصره هربوا أو استكانوا أو أفتوا بالباطل، ومنهم علماء لا نزال نجلهم ونستفيد من كتبهم!

لا يمكننا إذن أن نطلب في زمن الفتون الذي نعيش فيه أن يكون علماؤنا أجمعون مثل الأحمدَيْن، فهذا شيء لم يكن حتى في زمانيهما، وهما أفضل من زماننا من أوجه كثيرة!

فإن قيل: إنما نريد أن يكون بعض علمائنا - لا جميعهم - على هذه الهيئة العالية.
فجوابي: من الظلم أن يُظن أن زماننا لم ينجب علماء صادعين بالحق، علم ذلك من علمه وجهله من جهله. لكن الفرق بين زماننا والأزمنة السابقة: أن الناس صاروا ينتظرون من العالم كل شيء، ويكتفون هم بالسلبية القاتلة، مع النقد المرير!

توضيح علمي

وقد تعرض في هذا الباب شبهة، يرددها بعض الناس بقصد حسن، فيقولون:
لا يمكننا العمل دون بيان شاف من علماء الشريعة، الذين أناط الله تعالى بهم هذه المسؤولية. فالعمل إن كان على غير بصيرة من الله، كان فساده أكثر من صلاحه، ولا بصيرة إلا ببيان العلماء.
وهذا الكلام صحيح معتبر، ولكن الغلو الشديد في تكراره على مسامع الناس، حوله في ألسنة الكثيرين إلى مشجب تعلق عليه أصناف التخاذل، وألوان التكاسل. وذلك أن الحاجة إلى فتوى عالم من العلماء قبل الإقدام على العمل، تحولت إلى الحاجة إلى فتوى كل العلماء!

وهكذا صار الخوّارون تنزل بهم النازلة، وتصدر فيها فتوى بعض كبار علماء الأمة، فيأبون مع ذلك إلا القعود، والنكوص عن الحركة المثمرة لتنزيل الحكم الشرعي الملائم في تلك النازلة.

ثم يزيدون بأن يصيحوا - لتبرير ما هم فيه من الخور وضعف الهمة - :

أين العلماء؟ ما لهم لا يتكلمون؟

فلسان حالهم: لا عمل إلا بعد أن يظهر للعلماء كلهم موقف واضح من النازلة - مع أن ذلك ضرب من المحال! ثم لعلهم لو وجد ذلك - وهيهات - لا يزيدهم اتفاقُ العلماء إلا خلودًا إلى الأرض!

إنني لأجزم دون تردد: أنه لا يوجد شيء - صغيرًا كان أو كبيرًا - في العقيدة أو الفقه أو الفكر أو مناهج الدعوة لم يبينه بعض علماء العصر بيانًا شافيًا تفصيليًّا.

وأجزم أيضًا أنه لم تنزل قط بالأمة نازلة متعلقة بالمجتمع أو الاقتصاد أو السياسة أو غير ذلك، ولم يكن لبعض العلماء فيها قول صريح واضح.

وقد رأيت في الآونة الأخيرة من هذه الظاهرة عجبًا من العجب:

يسيء زنديق متفاصح إلى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أو يطعن في شريعة قطعية ثابتة أو يستغل ما يسمى "حرية الفن" (ولو زيدت عينٌ في أول اللفظ، لكان بالمعنى المراد أجدر) في إباحة كل محرم معلوم الحرمة بالضرورة من دين الله. ويتكلم بعض العلماء، فيبينون حكم الله في النازلة - مع أنه معلوم لكل مسلم -، ويشرحون الواجب على آحاد المكلفين وجماعاتهم.

ثم يأتي بعض العاجزين فيقول بصفاقة وجه مستغربة: أين العلماء؟ أين فلان وعلان؟ لم لا يتكلمون؟
سبحان الله!

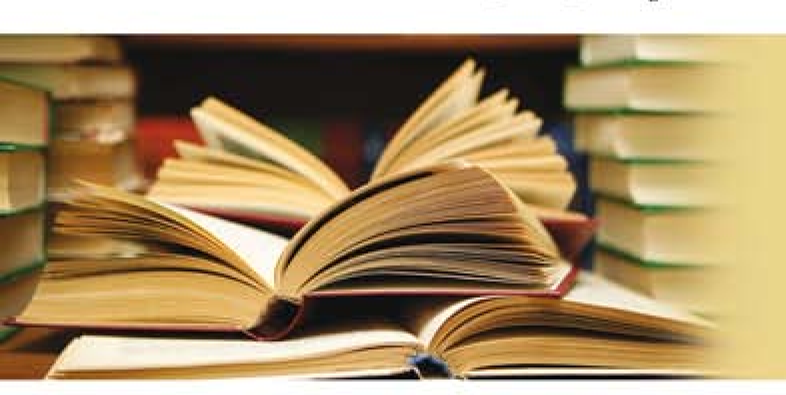
أتراك عملت بفتوى من أفتى، حتى تتكلف طلبَ فتوى من لم يُفت؟

ويقع ظلم الكفرة المعتدين على بلد من بلاد المسلمين، ويفتي بعض العلماء بوجوب نصرتهم، ويكتبون في خطورة القضية، وأهمية التفاعل الإيجابي معها. فلا يرضى بعضهم - بعد ذلك كله - إلا أن يغض الطرف عن مجاج النحل، ولا يرى فيه غير قيء الزنابير، فيقول:
أين العلماء الآخرون؟
سبحان الله!

أفي مثل هذا الأمر الواضح تحتاج إلى فتوى؟ ثم أنت بعدُ لما نلتها احتجت إلى غيرها؟

يسر النفي

ثم إن هؤلاء حين ينفون وجود البيان العلمي الشافي من بعض العلماء، يكون ذلك في كثير من الأحيان بسبب قلة الاطلاع، وضعف الهمة في البحث، لا بسبب غياب ذلك البيان في نفس الأمر.



ولا شك أن الثورة المعلوماتية الراهنة، تقتضي بذل مجهود كبير في البحث الواعي الذي يستبقي النافع ويستبعد "الطفيليات"! ولا يحل الجزم بنفي الوجود إلا بعد استفراغ الجهد في التنقيب.

وكم من طالب سمعته يقول: "هذه القضية لم يتكلم فيها العلماء". والحال أن المؤلفات فيها تعد بالعشرات!
فما ذنب العلماء إن كان العامي أو الطالب يرفض القراءة، ويهجر البحث، ويركن إلى اليسر والدعة؟!
أتراهم يقفون على رأسه فيصبون العلم في ذهنه صبًّا حتى يروَى ويرضى؟

مفاسد الانتظار والضغط

ومما ينبغي تدبره أن العلماء عند الوقائع الحادثة على ثلاثة أصناف:

النوع الأول: عالم ممسك طرف يراعه في سبيل الله، كلما سمع هيعة أو فزعة أجرى مداد الجهر بالحق على صحائف البيان، يبتغي الأجر الجزيل مظانّه. فطوبى له! وثبته الله وزاده حرصًا!

والنوع الثاني: عالم منزوٍ على نفسه، ضعيف الجَنان، قليل الحيلة في فهم الواقع، لا يحسن أساليب التدافع والمقارعة، ولا يصبر على لأواء الابتلاء. فهذا إذا طولب بموقف في كل نازلة أفضى به حال الضغط والانفصام بين الموجود والمطلوب إلى نوع من النفاق الفكري، يتسلح فيه بـ"ترسانة" من الأجوبة (الديبلوماسية) التي تحتمل كل مقصود! بل لعله يقع في قول بعض الباطل، بسبب عدم قدرته على قول الحق المحض. فصارت المصلحةُ المنشودة مفسدةً خالصة!

والنوع الثالث: عالم رسمي مخذَّل متخاذل، يطلب الدنيا بعلمه، ويطوع فتواه لهوى نفسه، وأهواء آمريه! فانتظار قولة الحق من مثل هذا مهلكة للعمل والعاملين، لأنه مثل الضرب في حديد بارد، أو غرس الفسيل في صلد أصم.

أعجزًا وعجًّا؟

إن الداهية الكبرى التي أصابت الأمة في مقتل هي: انتشار آفة العجز والكسل، وخور العزائم والهمم.
ومن الحيل النفسية الشائعة عند المصاب بهذه الآفة: أن يبرر عجزه بإلقاء اللوم على غيره. فتجتمع السلبية المقيتة بالنقد الخشن، والعجزُ المخزي بالضجيج والصراخ.

فما أسهل الهدم، وما أصعب البناء!

وإن آحاد المسلمين يمكنهم أن يعملوا الكثير الكثير، مما قامت الحجة عليهم فيه، بما لا يحصى من فتاوي علماء العصر وبياناتهم.

ففيم التخاذل وتضييع الأوقات في ما لا نفع يرجى منه؟ وحتامَ تحميل العلماء وحدهم ثمار عجز أفراد المجتمع في طبقاته كلها؟

يأتيني بعض الناس فيقولون: "لمَ لا تلقي دروسًا عامة؟".

فأجيب بيسر بالغ: "هل سبق لي أن رفضتُ عرضًا بذلك؟ وما الذي يمنعكم أنتم من تنظيم ندوة أو محاضرة أو نشاط ثقافي، ثم دعوتي - أو غيري - لتنشيطها؟ أم تراك تحتاج إلى فتوى لذلك؟!".

ونظيرُ هذا الجواب حاضر في أعمال كثيرة مختلفة يمكن لآحاد المكلفين الاضطلاعُ بأعبائها، دون حاجة لتأطير أو بيان من عالم من العلماء.



إضاءة في الختام

إن غاية النفثة التي تضمنها هذا المقال: حثّ عموم الناس على الجد والعمل، وحضهم على رفع وساوس التلكؤ والكسل، وتنبيههم على المثبطات المتكاثرة، والحيل التي يبرر بها القعود والانبطاح.

وليست الغاية من كلامي أن تزال المسؤولية عن مؤسسة العلماء، ولا أحب أن يكون مقالي هذا صك براءة لجميعهم من التقصير وضعف التأثير.

كما أنني لا أحل لقارئ كلامي أن يتخذه ذريعة للدفاع عن العلماء الرسميين المتخاذلين، أتباع أهواء السلاطين، وسدنة دين الغلو في طاعة المخلوقين.

فما هؤلاء أقصد .. فإن أمرهم أظهر من الشمس رأدَ الضحى .. ولست ممن يجره إجلال العلماء، إلى تقديسٍ يمنع تبين الأخطاء!

والله الموفق.



جنة في الدنيا

محمد علي يوسف

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد:4]

قاعدة قرآنية واضحة ومحكمة ودلائلها الواقعية مشهودة ومدركة.

نعم، الإنسان في هذه الدنيا يعيش في كبد ومشقة ويكدح فيها كدحًا، ويمضي في دروبها من كدّ إلى نَصَبٍ، ومن نَصَبٍ إلى وَصب .. هذه حقيقة ذلك السجن المزين الذي يعتقده الكافر جنته ومنتهى أمله، ويستوي في أصل الكبد والمشقة جميع الخلق غنيهم وفقيرهم، وقويهم وضعيفهم، وإن كانوا يتفاوتون بعد ذلك في درجات ملاقاة هذا الكبد وتلك المشقة.

حتى أولئك الذين قد يبدو على ظاهرهم أنهم قد حازوا الدنيا بحذافيرها أيضًا -يلاقون في حقيقة الأمر شيئًا من الكبد؛ فالكبد طبيعة الحياة الدنيا، تختلف أشكاله وأسبابه؛ ولكنه هو الكبد في النهاية، وأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمرّ في الأخرى.

وكل نعيم الدنيا زائل وكل متاعها ناقص، ودومًا ما يعكر صفوه كدر ما، مهما بلغت درجة النعيم، وإن رفل في جنباته الملوك وأبناء السلاطين.

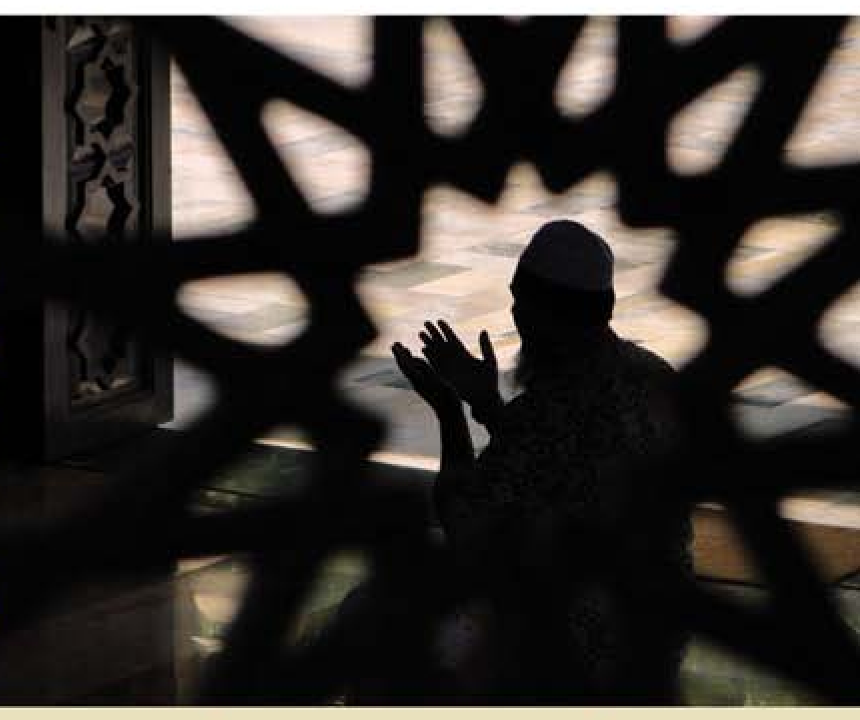
قَالَ رَجُلٌ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! صِفْ لَنَا الدُّنْيَا. قَالَ: "وَمَا أَصِفُ لَكَ مِنْ دَارٍ مَنْ صَحَّ فِيهَا أَمِنَ، وَمَنْ سَقِمَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنِ افْتَقَرَ فِيهَا حَزِنَ، وَمَنِ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ"؟!.

[المجالسة وجواهر العلم (2/371)]

ولقد أدرك العقلاء ذلك في كل زمان؛ فعملوا لراحة أنفسهم الراحة الحقيقية التي لا تكون كما قال الإمام أحمد رحمه الله إلا مع أول قدم توضع في الجنة بفضل الله. [طبقات الحنابلة (1/291)]

ولما قيل للربيع بن خثيم: هلا أرحت نفسك -لما وجدوا من نصبه في عبادة الله-؟ ردّ عليهم قائلًا: "راحتها أريد". قال القشيري: " فمن أُجِير من النار وصل إلى الراحة الكبرى، ومن صُلِّيَ بالسعير وقع في المحنة الكبرى."

ومن أراد العُلا عفوًا بلا تعب *** قضى ولم يقض من إدراكها وَطَرًا
لا يبلغ السؤل إلا بعد مؤلمة *** ولا تتم المنى إلا لمن صبرا



يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يُدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنَّ بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعة قاده لحياة الأبد، وكل ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان، ولا قوة إلا بالله".

هذا هو الأصل والمآل الذي يبغي كل عاقل أن يصيبه.

لكن هل يعني هذا أن نعيم الجنة وراحتها لا يتذوق إلا في الآخرة؟!

هذا ما يظنه البعض للأسف، يظنون أن الدنيا ليس فيها إلا المشقة والتعب والحزن والألم، والحقيقة أن هذا غير صحيح بإطلاق، في الدنيا يمكنك أن تتذوق شيئًا من نعيم الجنة؛ بل يمكنك إدراك ما هو أعلى بأن تحول حياتك إلى جنة، أن تنعم وأنت بين ظهراني الحياة الأولى بشيء من لذات الآخرة، وهذا النعيم قد أدركه البعض ووصفوه.

فمن جنة ابن عباس رضى الله عنهما الذى وجد من لذة العبادة ما جعله يقول عن أهل جنة الآخرة إنهم لو يجدون مثل ما يجد فما أطيب عيشهم! .. إلى جنة ابن تيمية التي أخبر أن محلها فى صدره؛ إنْ سُجن فسجنه خلوة فى تلك الجنة، وإن قتل فقتله شهادة تنقله منها إلى جنة الآخرة، وإن نفي فنفيه سياحة وتأمل فى أرض الله، تدفع القلب دفعًا إلى ذكره ليجوب وارف ظلال جنة الدنيا.

أو جنة الحسن البصرى الذى أخبر أنه ومن كانوا مثله، يجدون فيها من النعيم واللذة ما لو علمه أبناء الملوك والسلاطين لجالدوهم عليها بالسيوف.

إذن فالأمر ممكن، والبعض بالفعل أدركه وعاينه، وتقلب في حدائق بهجته وبساتين لذته.

الدنيا إذن ليست شقاءً خالصا للمؤمنين. والله يقول في سورة طه: ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه: 2] ويقول أيضا في نفس السورة: ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ [طه: 123] ومرة ثالثة فى قوله عن الشيطان: ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴾ [طه: 117]. والملاحظ هنا أن الشقاء نُفي في موضعين بالسورة وأُثبت فى موضع نفي حال ملازمة القرآن واتباع منهج الله وهداه، وتلك جنة الأرض، وأثبت الشقاء حال الخروج من جنة السماء حال الاستجابة لنزغات الشيطان.

والمعنى الذى يتجلى بجمع هذه الآيات أن الشقاء إنما يكون خارج الجنة، والنعيم يكون فقط داخلها؛ وذلك في الدنيا قبل الآخرة؛ فيقل الشقاء حال المكث في جنة الدنيا التي حدثنا عنها العباد والصالحون وكرروا ذكرها، والتي هي في الحقيقة الطريق لجنة الآخرة؛ حيث لا شقاء ولا نصب ولا وصب ولا جوع ولا ظمأ.

لكن كيف يعيش المرء في تلك الجنة؟ وكيف يتذوق شيئًا من نعيمها وهو بين ظهراني الدنيا؟!

سؤال كان دائمًا يثير في عقلي مكامن التفكير، ويحرك في قلبي حنينًا واشتياقًا لتلك اللذة، ولقد نظرت في نعيم أهل الجنة الذي كلمنا ربنا عن شيء منه في كتابه الكريم فوجدت كثيرًا مما فيه يمكن تذوقه في الدنيا. فمن نعيم أهل الجنة مثلا أنهم لا يسمعون فيها لغوًا ولا كذابًا؛ كما في خاتمة سورة النبأ وكذلك ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾ كما في سورة الواقعة، يُفهم من ذلك إذن أن سماع اللغو والكذب والإثم يعد من منغصات الدنيا وضيق عيشها.

ولَكَم أعجب ممن بإمكانه أن يتذوق بعض ذلك النعيم بالإعراض عن سماع اللغو كما أمره الله، ومع ذلك يدمن تنغيص حياته ويزكم أنفه برائحة اللغو والكذب الخانقة ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: 55] وهذا توجيه قرآني جليل يتذوق من استجاب له بعضًا من نعيم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴾ [النبأ: 35] فقط عليه أن يكون من عباد الرحمن، الذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كرامًا، إنهم أهل الفردوس المؤمنون، الذين من أهم خصائصهم التي ذكرت في سورتهم: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: 3]

وتلك والله نعمة وفضل لا يشعر به إلا من تمكن من الاستعلاء على آثام الدنيا ولغوها وكذبها، والتفت إلى ما ينفعه وحرص عليه، أما من أدمنوا مجالس اللغو والغِيبة، وتحروا فاحش القول وساقط الكلام -فما أبعدهم عن تلك اللذة! وما أشد حرمانهم من هذه النعمة التي هُدي إليها أهل الجنة في الدنيا والآخرة! قال تعالى: ﴿ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴾ [الحج: 24]

يقول ابن كثير رحمه الله:

"فهدوا إلى المكان الذي يسمعون فيه الكلام الطيب، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذي يوبخون ويقرعون به".

ومن نعيم أهل الجنة أن صدورهم مطهرة منزوعة الغل، يرفلون في ثياب المحبة، ويتقلبون بين واحات سلامة الصدر ونقاء الطوية، ويستظلون بوارف ظلال الأخوة الإيمانية.

وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: 47]
ومن ذلك يتبين أن الغل والحقد حين يستعر القلب بلهيبه فإن ذلك من عذاب الدنيا وضيق عيشها، الذي يُحجَب عن أهل الجنة ويُنقذون منه. وصدر الحاقد دائمًا ما يكون ضيقًا مليئًا بالحزن، يمزقه اللهاث المسعور، ويسيل لعاب طمعه على ما فُضل به غيره، وهو لا يرتاح أبدًا؛ لأنه يرى أن الكل لا يستحقون ما هم فيه بينما هو وحده من يستحق، ولو أنه انشغل بأداء ما عليه واجتهد، ثم ترك النتائج لمن يخفض ويرفع ومن بيده الضر والنفع =لارتاح وأراح، أما لو ظل يمد عينيه إلى ما متع به غيره فسيظل في ذلك العذاب طويلًا، إلا لو جرب يومًا أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهو -بالمناسبة- شعور أجمل بكثير من الحقد. وبدلًا من سيطرة تلك المشاعر على نفسه لدرجة تجعله يبغض ذلك المحقود عليه ويمتلئ صدره بالغل تجاهه، وربما تطور الأمر إلى الحسد وتمني زوال النعمة عنه =فإن عليه أن ينشغل بما ينفعه، ويصلح حاله، لعله يرزق نقاء السريرة وسلامة الصدر؛ التي هي من أعظم وأجل النعم.

أما أكثر ما يطهر القلب من الحسد، وينقي النفس من شوائب النظر لما فى أيدي الغير =فهو إدراك الإنسان لمعنى القاعدة القرآنية الجامعة ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: 16]



فإن أدرك العبد أن ربه وحده هو من يخفض ويرفع ويعطي ويمنع وأن مطالبه مهما كانت بعيدة وصعبة المنال فلا يأتي بها إلا هو =فعلى ماذا يحسد ولماذا يحقد؟! حينئذ -وحينئذ فقط- يكون الأمر مستويًا عنده، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة.

إن عبارة ﴿ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ إن صارت مبدأ حياة تنعّم المرء، وسلم صدره من أسقام الحقد وأدران الغل وأوجاع الحسد، واستبدل كل ذلك بالطمأنينة والرضا وحب الخير للناس.

وأيضا هذا النوع من النعيم تستطيع تذوق لذته في الدنيا وذلك بشيء يسير فقط على من يسره الله له وصدق في طلبه؛ ذلك بأن تُطهّر قلبك وتصفي سريرتك تجاه إخوانك، وتحاول أن تبيت وليس في صدرك غلّ للمؤمنين؛ كحال ذلك الرجل الذي أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة، ويعينك على هذا أن تعوّد لسانك على دعاء الصالحين:﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: 10]

إن حققت تلك الأخوة، وأدركت سلامة الصدر، وأحببت لأخيك ما تحب لنفسك، وكلّلت ذلك بإحسان الظن والتماس العذر، وختمت على ذلك بختام العفو والصفح الجميل -فهنيئًا لك؛ فقد أدركت شيئًا من نعيم أهل الجنة وأنت لم تزل في الدنيا.

وأهل الجنة يُلهمون التسبيح والتحميد والتكبير كما نُلهم نحن في الدنيا التقاط أنفاسنا، وقد صحّ ذلك عن رسول الله ﷺ، وصحّ عنه أيضًا أن أول زُمرة يدخلون الجنة يسبحون الله بكرة وعشيًّا، ويقول الله عن أهل الجنة: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس: 10]

وبما أن كل ما في الجنة نعيم فيفهم من ذلك أن ذكر الله مما يتنعم به أهل الجنة.

وعليه فإن هذا النوع من النعيم أيضًا يستطيع المؤمن المسدد أن يتذوقه وهو في هذه الدار الفانية، وذلك بأن يُرطب لسانه ويحي قلبه دومًا بتسبيح الله وتحميده، وتكبيره وذكره آناء الليل وأطراف النهار، وتلك وربّي جنة في الدنيا بساتينها وحدائقها تورف في قلب المؤمن، وتلقي بظلالها على روحه، وتزهر بها جنبات نفسه.

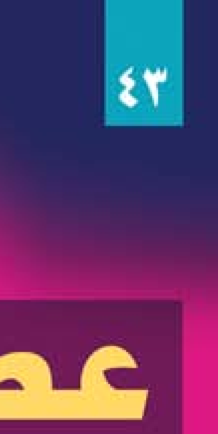


ولقد جعل الشرع بعض الأذكار ذات علاقة وثيقة ومباشرة بالجنة ونعيمها؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله كَنز من كنوز الجنة، ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب؛ وذلك من تمام الطمأنينة التي هي من صميم نعيم أهل الجنة.

ولقد أخبر ربنا أنه حتى النعيم المادي الذي يشابه في وصفه نعيم الجنة لفظًا ومعنى إنما يُنال في الدنيا بالذكر والاستغفار﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح: 10]. وجنة الذكر لا يتذوق لذاتها ولا يستظل بظلالها أولئك الذين ألِفوا الذكر كعادة جافة؛ ولكن مَن يتذوقه حقًّا من تدبر ما تلاه، وتأمل في سناه، ورطب قلبه قبل لسانه بفحواه ومعناه؛ أولئك فقط يدركون تلك اللذة والنعم التي يُلهَمُها أهل الجنة.

أما أعظم نعيم أهل الجنة -والذي هوالنظر إلى وجهه سبحانه وتنضر الوجه بذلك الفضل العظيم وتلك النعمة الجليلة- فهذا وإن كان لا ينال في الدنيا بحال؛ فإن النبي قد قرن طلبه إياه بلذة أخرى لعلها تصبر البعض في الدنيا على امتناع لذة النظر إليه فيها، تلك اللذة هي الشوق إلى لقائه، والتي أردف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاءه لمولاه أن يرزقه لذة النظر لوجهه. والشوق إلى لقاء الله نعمة لا يدركها إلا من عرفه حق المعرفة، وتعلم عنه، وتجول في رحاب معاني أسمائه وصفاته ونعمه وآلائه، هنا يصيح قلبه المشتاق بصيحة الكليم: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: 84] وتلك والله أعظم جنان الدنيا، أن تعجل لربك ويتحرك القلب بالشوق إليه وتتلذذ الروح بمحبته.

بذلك الذي ذكرته وغيره -مما لم يتسع المقام لذكره- قد تقترب شيئًا ما من سُكنى تلك الجنة، وتذوق بعض لذاتها هنا، في الدنيا، حيث: جنة الدنيا.



عصر العلم
دور البحث العلمي في صراع الحضارات (1/3)

خالد صقر

"خلال العقود الثلاثة الأخيرة استفادت المجتمعات الإسلامية من عملية علمنة وتسييس مركزة، قادت إلى استثمار ضخم في التعليم والتدريب المهني والتنمية الاقتصادية، وقادت إلى إعادة صياغة الطبقة الاجتماعية الوسطى، وقادت أيضًا إلى احتكاك وتبادل ثقافي متبادل بين هذه المجتمعات والحضارة الغربية، كما قادت كذلك إلى نمو ملحوظ في وسائل الاتصال وتبادل المعلومات من خلال التلفاز والانترنت والتواصل الاجتماعي.

يمكن للمرء أن يميز بين مسارين اجتماعيين وسياسيين في المجتمعات الإسلامية المعاصرة:

المسار الأول: هو مسار فاعل يتميز باعتناقه لفكرة أن الإسلام يمثل الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الشك، وأن الإسلام قادر على تجديد نفسه وتقديم بدائل اجتماعية جذابة للنمط الاجتماعي الغربي.

أما المسار الثاني: فيتسم باعتناقه لفكرة أن الإسلام قاصر عن مواكبة مكتسبات الحضارة الغربية كمًّا وكيفًا، ومن ثم فالعلمانية هي البديل الذي يتبناه ذلك المسار لتقليل العلاقة بين المجتمع والمكون الديني للثقافة". [فيليب دوارت سانتوس، "البشر على الأرض: منذ النشأة حتى المستقبل الممكن"، ص243]

إن الإدراك الغربي لأهمية العلوم والتكنولوجيا كعامل رئيس في البناء الحضاري الغربي لا يقبل الشك ولا الجدال، وربما تعود جذور ذلك الإدراك إلى القرن الثامن عشر؛ فقد بلور جيمس كوك ذلك الإدراك في عام 1764 قائلًا: "إن الاستعمار العلمي هو فرض للقوة والنفوذ من خلال فرض للمعرفة والعلم" [Tignor, R.L., (2008) Worlds Together, Worlds Apart: The Mongol Empire to the present, W W Norton & Company Incorporated]

وفي الحقيقة يبدو أن هذا الإدراك قد استمد الغربيون أصوله من الحضارة الإسلامية؛ التي تعتبر أول حضارة تصوغ إطارًا واضحًا وسليمًا للعلوم الطبيعية، بعيدًا عن اللاعلم [Non-science / anti-science]، وتنجح في استغلال هذه العلوم في البناء المعرفي لها، مما أدى إلى ارتقاء كل مظاهر الحياة في المجتمعات الإسلامية الأولى والوسطى.

تجمدت العلوم الطبيعية في أوروبا لقرون طويلة، هذه القرون التي شهدت السيطرة الكاسحة للعقيدة المسيحية الكاثوليكية على كافة مظاهر الحياة والحضارة في البلدان الأوروبية، وفي هذه الأثناء كان المشتغلون بالعلوم الطبيعية عادة ما ينتهي مصيرهم إلى الانزواء والانعزال عن المجتمع تحت حجة الجنون أو المس الشيطاني، أو إلى القتل والحرق تحت حجة الهرطقة والسحر!

ثم بدأ الأمل يشرق من جديد على القارة العجوز مع الجهود العلمية الأولى في عصر النهضة: (كوبرنيكوس) يصوغ وصفًا جديدًا للنظام الشمسي في القرن السادس عشر، وصف لا تحتل فيه الأرض مركز الكون، بل تدور حول الشمس، وتدور معها كافة الكواكب، وعلى الرغم من أن هذا الوصف كان معروفًا ومثبتًا لدى العرب قبل ذلك الزمن بقرون إلا أنه كان ثوريًّا بحق في أوروبا آنذاك.



إن تجارب (كوبرنيكوس) وإثباتاته الرياضية دفعت بالحضارة الأوروبية بموروثاتها القوطية والساكسونية والجرمانية المظلمة إلى طريق مضيء وجديد تمامًا، أعاد تشكيلها وطهرها فيما بعد من المكونات التي تعود جذورها للسحر والديانات الوثنية والفكر الإثني ذي الجذور الغامضة.

كانت فكرة "تقديم التجربة والمشاهدة على نصوص العهد القديم" هي فكرة ثورية بحق آنذاك، ثورية لدرجة أن (كوبرنيكوس) عاش طوال حياته يخشى من رد فعل الكنيسة الكاثوليكية حال نشرها، ويقتصر في عرضها على زملائه من العلماء والباحثين فقط؛ فكانت ثورة كوبرنيكوس العلمية هي العلامة الأولى في طريق اتخاذ العلم الطبيعي بمنهجه التجريبي أساسًا أصيلًا للحضارة الغربية، بدلًا من نصوص العهدين التي حامت حولها الشكوك العميقة؛ لا سيما مع انتشار البروتستانتية والكلفينية في أوروبا، بما تحملانه من نقد لنصوص العهدين و قدسيتها الحرفية التي تشكل الهيكل الأساسي للمسيحية الكاثوليكية.

إن التفاعل التاريخي بين المسيحية والإنجازات البشرية في مجال العلوم الطبيعية التجريبية يوضح لنا عمق الدور الذي لعبه العلم في العقل الأوروبي الوسيط؛ إذ إنه قام بتخليصه من ربقة التحريفات التي أصابت نصوص العهدين نتيجة التأثر بالعقائد الوثنية الرومانية طيلة الثلاثة القرون الأولى التالية للميلاد، وفي نفس الوقت طرح بديلًا فعالًا ومقنعًا لهذه النصوص، ألا وهو المنهج التجريبي للبحث في العلوم الطبيعية وبناء وتطوير المعارف البشرية.

يرى المتتبع لتاريخ العلوم وفلسفتها في أوروبا أن الاهتمام الذي شغل العقل الأوروبي خلال القرون التي تلت عصر النهضة إلى يومنا هذا هو اهتمام متسارع متصاعد، ويتجسد هذا التسارع والتصاعد في عدة مؤشرات، تأتي في مقدمتها: مقدار الإنجازات العلمية كمًّا وكيفًا، وعدد الجامعات والمعاهد، والتوسع المطرد في الطباعة والنشر والأرشفة، والحصيلة التقنية لكل هذا والتي يتجسد بوضوح على النمط المعيشي للإنسان الأوروبي وتطوره التاريخي.

إن المحصلة النهائية لهذا التاريخ الحافل يمكن وصفها بالدين! نعم، إن الحضارة الأوروبية الآن دينها هو العلوم الطبيعية وفلسفتها، وإله هذا الدين هو الإنسان ذاته! الدليل الساطع على صحة ذلك الوصف يتجسد في الاستجابة المطلقة لدى الإنسان الغربي لما تمليه عليه منجزات العلم الحديث في كل مظاهر الحياة؛ بالنسبة للفرد والمجتمع، وبالرغم من الأزمات العلمية والفلسفية الهائلة التي يعيشها ذلك الدين "التجريبي" إلا أن الإنسان الغربي العادي لا يرى فيها ما يستدعي عودته إلى الدين "الإلهي" الذي يخلو من التجربة والمشاهدة والاستقراء وغير ذلك من عناصر منهج البحث العلمي، حتى بالرغم من تعرض هذه العناصر لأزمات فلسفية كاسحة تهدم صحتها المطلقة وتحطم الافتراض القائل بسريانها الأبدي على الظواهر الطبيعية.

يمكن التأريخ لبداية الصراع الحديث بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ببداية رحلات الاستكشاف الاستعماري في القرنين السادس والسابع عشر؛ حينما كانت سفن البريطانيين والإسبان والفرنسيين تجوب البحار والمحيطات سعيًا للوصول إلى شواطئ مكتظة بالثروات والموارد، حينئذ أدرك الأوروبيون أن الحصول على هذه الموارد وامتلاكها يتطلب الانتصار في الصراع الدائر مع الإمبراطورية العثمانية أولًا، ثم غزو البلاد الإسلامية عسكريًّا وثقافيًّا بعد ذلك.

كانت الدولة العثمانية هي الكيان الإسلامي الوحيد الناجح في العالم آنذاك، بنظامها السياسي المعقد ومجتمعها الراقي ونخبتها المثقفة المتعلمة، وعلى الرغم من الإهمال العلمي الشديد الذي عانت منه الولايات العثمانية في القرنين السادس والسابع عشر إلا أن الإمبراطورية العثمانية وقفت كعقبة كؤود في وجه الأطماع التوسعية الأوروبية في حوض البحر المتوسط، ورأى الأوروبيون فيها عائقًا أمام أطماعهم في التوسع في باقي أرجاء العالم، لاسيما مع الهجمات المتتالية للعثمانيين على عواصم أوروبا، لاسيما خلال القرن السادس عشر في عهد السلطان سليمان العظيم (القانوني).

في نفس الوقت وخلال هذا القرن المضطرب بالنسبة لأوروبا تأسست أكثر من خمسين جامعة في كافة الدول الأوروبية[Frijhoff, W. (1996) In A History of the University in Europe. Vol. 2, Universities in Early Modern Europe (1500–1800). Edited by Hilde De Ridder-Symoens and Walter Rüegg, 43–110. Cambridge University Press.]، منها على سبيل المثال جامعة فرايبورج (ألمانيا)، وباليرمو (إيطاليا)، وكلية الثليث باسكتلندا، وجامعة لايدن بهولاندا، وجامعة جراس بالنمسا وهي من أهم الجامعات في تاريخ أوروبا، والجدير بالذكر أن هذه الجامعة قد تأسست بعد خمسين عامًا فقط من الحصار الفاتك الذي ضربه السلطان سليمان العظيم على فيينا!

يمكن القول إن اهتمام العثمانيين الشديد بفنون الحرب وعلومها، وتأسيسهم للمدارس العسكرية والمعاهد التي تعمل على تطوير الأسلحة الجديدة، على حساب الاهتمام بالعلوم الطبيعية والطبية والهندسية وفلسفة العلوم =قد جعل من الإمبراطورية العثمانية دولة ذات سطوة عسكرية عالمية، لكن تأمل تاريخ الجامعات في أوروبا ومقارنته بتاريخ الجامعات في الإمبراطورية العثمانية يؤكد لنا أن العثمانيين كانوا بذلك قد فقدوا آفاق التطوير، وهدموا إمكانات استدامة دولتهم بحلول القرن السادس عشر.



إن أول جامعة تأسست في الدولة العثمانية كانت بعد نهاية القرن السادس عشر الحافل بما يقارب المائتي عام، وتحديداً في عام 1773، وهي جامعة إسطنبول التقنية! في ذلك الوقت كان الأوروبيون قد وصلوا إلى مقدار من التفوق العلمي يجعل خلفه كل جهود العثمانيين التالية بغير قيمة حقيقية! وإذا تأملنا تاريخ تأسيس وإصدار الدوريات العلمية المُحكَّمة [Peer-reviewed scientific journals] والتي تعتبر أهم أداة من أدوات تطور البحث العلمي والتراكم البنّاء للمعرفة العلمية =سنجد أن أول هذه الدوريات قد تأسس في أوروبا خلال القرن السابع عشر، وهي دورية "المبادلات الفلسفية للجمعية الملكية البريطانية"! بينما لم تشهد الدولة العثمانية صدور أي من هذه الدوريات المحكمة حتى سقوطها!

عندما بدأ نابليون بونابرت في حملاته الجريئة على المشرق العربي، ضاربًا بعرض الحائط التاريخ القريب للسطوة العسكرية العثمانية، كان من الواضح أن الفرنسيين قد تفوقوا على العثمانيين في كل مجالات المعرفة العلمية! لقد حمل نابليون معه في تلك الحملة العسكرية جامعة كاملة! فقد اصطحب أكثر من مائة وخمسين عالمًا في كل مجالات العلوم، بدءًا من البيولوجيا والفيزياء والكيمياء، وانتهاء بالفلسفة والرياضيات والمنطق والفلك! وفي تلك الحملة ظهر التفوق العسكري الفرنسي بكل وضوح؛ فقد أتاحت حرب السنوات السبع مع بريطانيا للمهندسين وعلماء الميكانيكا الفرنسيين تطوير أنظمة المدفعية إلى درجة فائقة آنذاك، كما أن الأبحاث التطبيقية في مجالات الغزل والنسيج والصناعات الخفيفة بشكل عام قد نجحت في تطوير الثياب والمعدات العسكرية الخفيفة؛ بما جعل الجندي الفرنسي أقدر على القتال من الجندي العربي/المملوكي بشكل عام، وفوق كل ذلك فقد حمل نابليون إلى مصر أول آلة طباعة ميكانيكية عرفها العرب! وبجانب الاختراق الفكري والثقافي الذي نتج عن حملة نابليون، والذي أسس لظواهر "التغريب" المتعددة في المجتمع؛ فإن سجلات التاريخ ترصد لنا بوضوح تلك الفجوة العلمية المبهرة التي كانت تفصل الفرنسيين عن المصريين آنذاك؛ فمنها ما ذكره الجبرتي في تاريخه عن التجارب والآلات التي رآها لدى الفرنسيين في دور بعض الأمراء التي اتخذها الفرنسيون معاهد للدراسة والبحث، وذكر الجبرتي رؤيته للعديد من تجارب الكيمياء (الغامضة)، وذكر رؤيته لمولد لشحنات الكهرباء الاستاتيكية، وتجارب متعددة اختتمها بعبارته الشهيرة: "ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا!" [عجائب الآثار للجبرتي – ذكر أحداث جمادى الثانية من عام 1213 هـ]

لنا أن نتصور أسباب اندفاع طائفة كبيرة من صفوة أبناء الشعب المصري إلى الإعجاب الكبير بالغرب وحضارته المادية إذن! فالذي حدث – وبلا أي حساسية – أن المصريين مثلهم مثل باقي الشعوب العربية كانوا قد وصلوا إلى مرحلة مقفرة من التردي العلمي والتخلف التقني، نتيجة للإهمال العثماني الفادح لهذه العلوم وجامعاتها، واهتمام العثمانيين الحصري بالعلوم العسكرية وبعض الآداب وعلوم الدين فقط؛ فلما رأوا منجزات ومكتشفات الحضارة الغربية على أيدي علماء الحملة الفرنسية ومهندسيها وجدوا في تلك الحضارة – أو توهموا – الخلاص من هذا الجهل وذلك التجاهل!

إن العقيدة الإسلامية على الرغم من صلابتها المطلقة وتمتعها بعوامل تضمن لها البقاء الأبدي إلا أنها تضعف كمنطلق عمليّ في قلوب العامة مع وجود عوامل الإبهار المادي، لا سيما مع ارتباط تلك العوامل بترقية مستوى المعيشة وتحقيق آمال الفرد والمجتمع.

تجسد العلم التجريبي والبحث العلمي آنذاك كأحد أهم عوامل الاستعمار الثقافي والغزو الفكري في الصراع الجديد بين حضارة الغرب المادية والحضارة الإسلامية، لا سيما مع بدء إرسال البعثات العلمية من المصريين إلى فرنسا مع بداية القرن التاسع عشر، والتي كان لها الدور الأعظم في الانتصار الباهر للحضارة الغربية على حضارتنا آنذاك، واستمر في التصاعد والتكامل إلى يومنا هذا.



فصل في العقل

حسين عبد الرازق

الحمد لله رب العالمين وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

فإن الله تعالى عليم حكيم، لا يفعل فعلًا ولا يَشاء ويُقدِّر إلا بعلم وحكمة، وله الحكمة البالغة وهو أحكم الحاكمين، ولهذا فهو سبحانه لم يخلق الإنسان عبثًا ولا لعبًا ولم يتركه سُدى؛ بل ذلك ظن الذين كفروا، قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: 155 - 116]، ولن يحيي الإنسان حياة طيبة إلا إذا علم الحكمة من خلقه، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[هود: 61]، فقد خلق الله تعالى الإنسان ليكون خليفة في الأرض واستعمره فيها وشرفه بأن حمله الأمانة، لذلك فهو مخلوق مكرم مفضل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70]

ولأجل أن يكون الإنسان مؤهلًا لحمل تلك الأمانة فقد جعل الله تعالى له مصادر للعلم والمعرفة، من أجلّ هذه المصادر المعرفية:

القلب: فهو آلة التعقل والتفكر والتأمل والنظر والاعتبار، والتدبر والتفقه، كما أن العين آلة الإبصار، والأذن آلة السمع، قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46]، وقال سبحانه: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[الأعراف: 179]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ﴾ [الأنعام: 25]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: 24]

فالعقل من أجلّ ما أكرم الله به الإنسان كأداة من أدوات المعرفة.

والعقل في لسان العرب يدل على حبس الشيء ومنعه وإمساكه، ومنه عِقال البعير، ويقال: عَقَلَ الدواء بطنه إذا أمسكه، واعتقل لسانه إذا حُبس ومنع من الكلام، وقد شبّه النبي صلى الله عليه وسلم ضبط القلب للعلم بضبط عقال البعير؛ ففي صحيح مسلم: "تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا". وقال تعالى عن القرآن: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: 49]

ومن الألفاظ القريبة المعنى، لفظ: (لُب - حِجْر - حِلم - نُهْيَه، جَمْعُهَا: نُهَى)، ولفظ العقل لم يذكر في القرآن، وإنما ذكر الفعل (يعقلون - يعقلها - نعقل).

وفي الحديث: "مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ...". وفي قول ابن مسعود رضي الله عنه: "مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً".

والعقل يستعمل ويُراد به:

١- الملكة، وآلة التفكير والبحث والنظر والتأمل.

٢- ما نتج عن التفكير والبحث والنظر.

فالأُولى هي المقدمة، والثانية هي النتيجة. (لذلك وردت جمل للأئمة والعلماء في ذم علم الكلام أو الفلسفة أو المنطق؛ فهذا ليس ذمًّا للعقل والتأمل والنظر، وإنما ذم لِمُنْتَج عقلي معين؛ فالعقليات ليست جنسًا واحدًا تُقبل كلها أو تُرد كلها، ولم يأت -فيما أعلم- حرفٌ عنهم في ذم العقل والتفكر والنظر ونحوه).

• مكانة العقل في الإسلام:

وقد جعل الله تعالى للعقل والتفكر والتأمل والنظر والتفقه مكانة عظيمة؛ فهو مناط التكليف، فغير العاقل غير مكلف، بل ذكر بعض المفسرين أنه المراد بتكريم بني آدم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، وفي الحديث: "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ". وذلك لغياب التعقل والقصد والاختيار.

وجاء الأمر في الوحي بالتعقل، والنظر والتفكر والاعتبار والتدبر للوصول إلى الحق في مثل قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: 68]، ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: 219]، ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: 73]، ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [يونس: 101] ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: 2]

وجاء الإنكار على من حبس عقله عن التفكر لهوًى أو تقليد: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170]، ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: 22]، وجاء التحذير من كل ما يضعف العقل عن أداء وظيفته؛ كشرب الخمر.

وحثَّ النبي صلى الله عليه وسلم على الاجتهاد والتفكر والتفقه ووعد المجتهد بالأجر وإن أخطأ؛ كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ".

• والأدلة العقلية البرهانية في الوحي كثيرة ومتنوعة.



إن مادة الوحي ليست مجرد إخبار بكلام مع طلب التصديق به، وإنما هذا الكلام نفسه متضمن لبراهين عقلية ساطعة؛ ذلك أن الأنبياء عليهم السلام جاءوا إلى أقوامٍ مكذبين لهم فلا تقوم الحجة عليهم بمجرد خبرهم؛ بل لابد أن تكون الحجج عقلية آيات وبراهين وبينات تشهد لصدقهم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ".
وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: 53]

فبالعقل والتفكر والنظر مع قصد الهدى يتحقق الإنسان من صدق النبوة وصدق الوحي؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: 46]

وكانت القاعدة القرآنية في كل ما يُثْبَت أو يُنفَى إقامة الحجة والبرهان والسلطان؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: 111]، وقال: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ [الأنعام: 148]، وقال أيضًا: ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [آل عمران: 66] وقال تعالى: ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ﴾ [يونس: 68]

وقد أقام النبي صلى الله عليه وسلم الحجة بأدلة عقلية برهانية بمثل قوله: "أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ"؟ قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا. قَالَ: "فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ".

وهذه قاعدة عقلية عظيمة: (**الاستدلال بالمتفق على المفترق**)، أن تبدأ بمقدمة يُوافق عليها المخالف لتصل بها إلى محل الخلاف.

كما جاءت الأدلة العقلية في الوحي على أجلّ مسائل الإيمان؛ من ذلك إخلاص العبادة لله، والنهي عن عبادة غيره؛ في مثل قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأعراف: 194]، وقوله: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: 75 ، 76]، وفي قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: 42]، وقال: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: 95]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: 73]

والآيات في هذا المعنى كثيرة في إثبات عجز وضعف من عُبِدَ من دون الله، وأنه لا يملك ضرًّا ولا نفعًا؛ كمقدمةٍ لإبطال عبادته.

ومن ذلك الاستدلال بإقرارهم لله تعالى بأنه الخالق والفاطر ومالك الضر والنفع؛ كمقدمة لإخلاص العبادة له، في مثل قوله: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: 10]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: 61]، وقول إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾، وقوله عليه السلام: ﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء]

والاستدلال العقلي على إخلاص العبادة له بمقدمات يُقِرُّون بها لإلزامهم بإخلاص العبادة لله بطريقة السبر والتقسيم: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾[الطور: 35]، الإجابة أن الله وحده هو الخالق فلذلك كان وحده المستحق للعبادة، لذلك قال تعالى بعدها: ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الطور: 43]، ولما زعموا القرآن مُفترَى وقول البشر وأساطير الأولين قال تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور: 34]

وفي إثبات قدرة الله على إحياء الموتى جاءت أدلة برهانية عقلية بمقدمات تسوق إلى نتائج يقينية لمن أراد الهدى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[فصلت: 39]

والاستدلال بأنه فطرهم أول مرة ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[يس]
وتأمل هذا السياق﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[الإسراء] وبقياس الأَوْلَى﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: 57]

أدلة عقلية برهانية بيانية لم يستطع هؤلاء إنكارها إلا بمجرد ألسنتهم واستيقنتها أنفسهم، فلم يكن كفرهم إلا من جهة الهوى أو الشهوة أو الكبْر ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: 14]

• ومن أجلّ ما تميزت به الأدلة العقلية في الوحي ربطها بالإيمان والهدى والأخلاق؛ فالعلم والمعرفة مقدمة وليست غاية:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر]، وقوله تعالى:﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ: 46] يعني قاصدين الهدى، وكل ما جاء في الوحي من التذكير بآيات الله وخلقه وقدرته إنما هو مقدمة للعلم والإيمان به وطاعته.

• وكذلك تميزت الأدلة العقلية في الوحي باليسر والسهولة والإيجاز والقُرْبِ وضرب الأمثال، ولن تجد مثل هذه الخصائص في استدلال الفلاسفة ومن تأثر بهم، يعلم ذلك من اطلع على أقوالهم.

وكمثال: أَتْعَبَ المتكلمون أنفسهم في طلب البراهين على كون الإنسان مخلوقًا (دليل الأعراض وحدوث الأجسام) فاستدلوا له، مع كونه أمرًا لا يحتاج إلى دليل، أما في الوحي فاستدل به ولم يستدل له فقال:﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الطور: 35]
وصدق الله إذ قال:﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: 33]

وكما أن للعقل دورًا للتحقق من ثبوت النبوة وصدق الوحي، وإخلاص العبادة لله، وإثبات قدرة لله، ونحو ذلك =فإن له كذلك دورًا عظيمًا في استنباط الأحكام الشرعية (**الاجتهاد**)، والقياس، والاعتبار، وكذلك فالعقل قد يدرك حسن الشيء وقبحه في كثير مما جاء به الشرع، وإن كان العبد لا يصير مكلفًا إلا بعد بلوغ الوحي.



• والعقل وإن كان آلة من آلات تحصيل المعرفة إلا أنه لا يمكن أن يستقل بالمعرفة لا سيما في العلم بالله وشرعه؛ فالعقل آلة كالسمع والبصر، له مجال وله حدود وقد يخطئ، والعقول متفاوتة، لذلك جاء الوحي متممًا ومصححًا ومرشدًا.

قال تعالى: ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: 71]
وقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: 23]، لذلك أمر سبحانه أن يكون المردُّ عند التنازع في أمر الدين إلى الوحي قال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: 59]، ورسل الله أذكى الناس عقولًا وأزكاهم نفوسًا، ومع ذلك فهدايتهم إنما هي بوحي من عند الله؛ قال الله تعالى لسيد ولد آدم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى: 52]، وأمره أن يقول: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴾[سبأ: 50]

فتفصيل العلم بالله، والغيب، والتشريع والعبادات =هذه خاصة الوحي، وإن كان للعقل دورٌ فيها كما سيأتي.
وغير ذلك من المعاملات وشؤون الحياة كالطب والهندسة ونحوها من العلوم والمعارف قد ذكر الشرع لها بعض الضوابط، ولم يأت الوحي بالتفصيل فيها، ومعنى كونها شرعية أي أنها لا تخالف الشرع، لا أن الشرع قد نص على إباحتها؛ فالتجارة مثلًا قد نهى الشرع فيها عن بعض المعاملات؛ كالربا والغرر وصور أخرى، فأي معاملة لا تدخل تحت هذه الصور فهي شرعية مباحة وهكذا.

فالمجال مفتوح للعقل والنظر والتجربة والبحث والإبداع، وكل علم نافع فهو علم شرعي.

وما جاء به الوحي إما خبر أو تكليف، والخبر قد يُعلم بالعقل وقد لا يدركه العقل، لكن العقل يجب عليه التصديق بكل ما جاء به الوحي لكونه قد علم صدق المُخْبِرِ به، وتأمل هذا المعنى في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ". فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ! فَقَالَ: "فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ". وَمَا هُمَا ثَمَّ... الحديث.

فإذا كان الإنسان قد علم بعقله ووافق ذلك الوحيُ بأن الله خالقٌ مدبرٌ عليمٌ ونحو ذلك؛ فقد يأتي الوحي بما لا يعلم العقل ثبوته أو نفيه؛ كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه: 5]، وقوله تعالى: ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي..." الحديث. ونحو ذلك من الأخبار؛ فيجب على العقل قبولها والإيمان بها والتسليم لها.

والتكليف إما أن يَعلم العبدُ الحكمة منه؛ كوجوب الإخلاص لله تعالى، والصدق، والأمانة، ومكارم الأخلاق، والنهي عن الزنا والخمر وقول الزور، ونحوها من الفواحش، وقد يأتي التشريع بما لا يُدرك العقلُ الحكمةَ منه -وإن كان يعلم إجمالًا أن الله عليم حكيم- كبعض شعائر الحج؛ كتقبيل الحجر، والطواف، والسعي، ورجم إبليس، ونحو ذلك؛ فيجب الإيمان به والتسليم له، وعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الحَجَرِ الأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: "إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لاَ تَضُرُّ وَلاَ تَنْفَعُ، وَلَوْلاَ أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ".

وتكون الحكمة من مثل ذلك ابتلاء العباد؛ قال تعالى في تحويل القبلة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾ [البقرة: 143]

وذلك ظن المنافقين، قال تعالى: ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: 50]، ثم ذكر المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾[النور]



فعلم العبد بأن ربه سبحانه هو الذي شرع وهو سبحانه عليم حكيم ينبغي أن يكون سببًا لإيمانه وتسليمه وعلمه بأن الله لن يُضَيِّعَهُ؛ فهو سبحانه أعلم بمن خلق، ويخلق ما يشاء ويختار، كما صنعت أم إسماعيل عليهما السلام، قالت: "يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الوَادِي، الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَيْءٌ"؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ لَهُ: "آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا"؟ قَالَ: "نَعَمْ". قَالَتْ: "إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا".

وقد يأتي التشريع بما لا تهواه النفوس: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ ، وتأمل قوله تعالى بعدها: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 216]

فليس من شرط المأمور به أن يكون محبوبًا، ولا من شرط المنهي عنه أن يكون مكروهًا، وإنما الشرط أن يكون مُستَطَاعًا.

وتلك المعارضة في بعض الأحكام الشرعية هي ابتلاء من الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾[النازعات]

ولا يكون قط شيءٌ مما تهواه النفوس إلا وقد جعل الله له طرقًا مباحة مشروعة، والشرع لا ينهى عن اتباع الهوى؛ وإنما ينهى عن اتباع الهوى بغير هدى من الله، وهدى الله هو تشريعه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[القصص: 50]

فالعلم بالحكمة لا شك يزيد به الإيمان ويطمئن به القلب، لكن لا يصح أن يتوقف الإيمان والعمل والتسليم على العلم بالحكمة.

• فالعقل والوحي يتكاملان ولا يتعارضان إذا استعملت كلًا منهما في مجاله وحدوده؛ فالعقل مهما كان ذكيًا لن يهتدي بنفسه، وإنما هو آلة تحتاج لمدخلات تستخرج منها المعرفة، ورأس هذه المدخلات هو الوحي من عند الله، وكذلك لا يتم الهدى بالوحي إلا للعاقل المريد الهدى؛ قال الله عن القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44]﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: 111]

والعين مهما كانت درجةُ إبصارها عالية فلن يرى صاحبُها في الغرفة المظلمة؛ وكذلك الأعمى لا يرى وإن كانت الشمس ساطعة، فكذلك العقل والوحي يتكاملان، ومن هنا تدرك لماذا قال مخالفو الرسل: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: 10]

ولئن كان من يفرضُ التعارضَ بين العقل الصحيح والوحي الثابت مُخطئًا = فلا يقل عنه خطئًا من يقدم أحدهما على الآخر، أو من يحصر المعرفة في واحد منهما.



أنا حر

أحمد يوسف السيد

من أعذب الكلمات التي من الممكن أن يسمعها الإنسان: كلمة "الحرية". كم تشعر أن حروفها تنبض بالحياة، والسّعة، والإشراق، والانطلاق.

وكم يكره الإنسان أن يكون مقيد الحرية من إنسان مثله يأكل ويشرب ويقضي حاجته في دورة المياه!!
فما الذي يميزه حتى يتحكم في حريات الناس لأجل أنه أوتي منصبًا أو مُلكًا؟!
ما الفرق بيننا وبينه حتى يكمم فم من شاء، ويقذف في السجن من شاء؟

إن تسلط الإنسان على الإنسان قصة قديمة تكررت كثيرًا على مر القرون والأزمان، وفي مختلف البلدان، وحين بعث الله الرسل لهذه المجتمعات البشرية كانت رسالتهم أفضل وسيلة للتخلص من تسلط الإنسان على الإنسان، إلى خضوع الجميع للواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يَلِد ولم يولد!

بل إن رسالة الرسل كان فيها من معاني الحرية ما هو أكثر من ذلك، وهي تخليص الإنسان من معاني العبودية الخفية التي لا يشعر بها، كالخضوع للمال وعبادته، أو للشهوة وعبادتها !!
فقد صحّ عن رسولنا صلى الله عليه وسلم أنه قال: "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ". [رواه البخاري].

وكثيرٌ من دعاوى الحرية التي لا تراعي هذا المعنى هي في الحقيقة ليست حُرّية سامية، بل هي حرية سخيفة قذرة، وفي باطنها عبودية رهيبة لمن لا يستحق العبودية.

إن النقاش حول الحرية، والجدل الدائر في موضوعها يحتاج إلى تفصيل في الأحوال قبل إطلاق الأحكام العامة التي يضيع معها الحق.

كثيرًا ما يثور التساؤل بعد أن يكتب أحدهم -ممن ينتسب إلى الإسلام- في شبكة من شبكات التواصل الاجتماعي كلامًا يسب فيه الله أو يطعن في دينه أو على رسوله صلى الله عليه وسلم: هل أعطى الإسلام مساحة من الحرية في مثل هذه الآراء؟ أم منعها؟ وماذا عن كتابة الشكوك التي تعتري الإنسان وبثها في الناس؟ هل تدخل ضمن الحرية أم لا؟

نحن عندنا صورتان يجب تمييزهما عن بعضهما، وإذا خُلِطت اختلط الحق بالباطل:

1) الصورة الأولى: الحوار للوصول إلى الحق

كأَنْ يأتي إنسان مسلم إلى شخص عالم، ويطرح عليه ما يجد من شكوك، أو من استشكالات لبعض النصوص الشرعية، ويريد جوابًا لذلك باحثًا عن الحق، طالبًا لليقين؛ فهنا الواجب الشرعي يُلزم العالِم بأن يجيب بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يسمع للسائل، ولا ينهره ولا يطرده. وهذه سنة الأنبياء مع أقوامهم؛ حيث كانوا يحاورونهم في أصل الإيمان بالحكمة والموعظة الحسنة، كما في حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه عباد الكواكب.

2) الصورة الثانية: إعلان الطعن في الدين

كإنسان يُشكك في النصوص الشرعية علنًا، أو يتجرأ فيسب الله أو دينه أو رسوله علنًا، أو نحو ذلك، فهنا يجب شرعًا على كل مسلم أن ينهى عن هذا المنكر، ويزيله بقدر استطاعته، باليد وإلا باللسان وإلا فيُنكِر بقلبه، فإن الله أوجب على المسلم إنكار المنكر، بل ذَكر أنَّ ترك المُنكَرات بلا نكير قد يؤدي إلى عقوبة عامة تشمل مُرتكب المُنكر والساكت عنه!

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: 165]

والرسول صلى الله عليه وسلم حين سألته أم سلمة رضي الله عنها: "أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**". [رواه البخاري ومسلم]

وذم الله بني إسرائيل على ترك إنكار المُنكر حيث قال تعالى: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة:79]. والله إنما بعث الرسل ليأمروا بالمعروف وينهوا عن المُنكَر، ولا يرضى الله تعالى بسبه أو سب رسوله أو الطعن في دينه، أو التشكيك في شيء أتى به رسوله صلى الله عليه وسلم.

وحين يتضايق البعض من شعيرة إنكار المُنكَر فإنهم قد فاتهم أن هذه الشعيرة من أكبر أنظمة الحُرية في العالم! فإن هذه الشعيرة تتيح لأي إنسان مهما كان بسيطًا، أو ليس عنده منصب أو وجاهة اجتماعية أن ينكر المنكر على أعلى منصب بشري دنيوي! لأن الناس سواء في حدود الله جل وعلا وفي حرماته سبحانه.

ويظن البعض أن الحرية في الإسلام تعني ترك الكُفر والباطل ينتشر دون منعٍ أو مجاهدة! وفات هؤلاء مواقف عديدة يحكيها الله في القرآن ترد قولهم هذا؛ فمثلًا:

- إبراهيم عليه السلام كسر الأصنام، في غير حضرة قومه ومن غير مشورتهم.
- موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه ووجدهم يعبدون العجل الذي صنعوه من ذهبهم وحُليّهم أخذه فحرقه ورماه في البحر ﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: 97]
- والرسول محمد صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة يوم فتحها كان حولها ثلاثمائة وستون صنمًا، فلم ينتظر الإذن من قريش لتحطيمها؛ فكسرها وهو يقول: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: 81] [صحيح البخاري (4720)].

وأما قول الله سبحانه وتعالى:﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة:256]، فقد اختلف أهل العلم من المفسرين في وجه هذه الآية. ومن أشهر ما قيل في ذلك أنها في عدم إجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام بشرط دفْع الجِزية التي يكونون بها صاغرين أمام المسلمين. وحين يتكلم أهل العلم عن أهل الذمة الذين يعيشون بين أظهر المسلمين فإنهم يشترطون ألا يُظهروا شعائر كُفرهم في بلاد المسلمين.

وفي الآية أقوال أخرى ربما يعُدّها كثير ممن يدعو إلى الحرية -بالتصور السابق ذِكره- أقوالاً غير معتبرة، وخلافًا غيرَ سائغ!!

والذي يأخذ بهذه الآية ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ وحدها ويترك باقي النصوص الشرعية الأخرى سيقع يقينًا في تناقضات وإشكالات. من ذلك أن يستدل بها على أن الردة ليست بجريمة يُعاقب عليها القانون الإسلامي!



ولا بد أن نتذكر -في ختام هذه الأسطر- أن مساحات الحرية في الإسلام كبيرة جدًّا، فالمأكولات كلها مباحة بينما المحرمات محصورة، والملبوسات كلها مباحة والمحرمات محصورة، والمعاملات التجارية كلها مباحة، والمحرمات محصورة.

وكل الواجبات الشرعية منوطة بالاستطاعة، وعند الضرورات تُباح المحظورات كأكل الميتة، كما راعت الشريعة أحوال الناس في سفرهم؛ فأباحت للمسافر الفطر في رمضان، والمسح على الخفين ثلاثة أيام.

وهكذا تجد أن مساحات الحرية كبيرة جدًّا في هذا الدين الصالح لجميع البشر، ومن ضيَّق فإنما يُضيِّق على نفسه.

مناقشة التوظيف التنويري لقول أبي حنيفة بقتل المسلم بالذمي

محمد براء ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

التعاقد والتحالف أساس كل مجتمع من المجتمعات، إذ لا يمكن لبني آدم أن يعيشوا بدون اتفاق على ما يشتركون فيه من جلب المنافع والمحبوبات ودفع المضار والمكروهات، ولازم ذلك وجود الموالي والمعادي لكل طائفة تعاقدت على مشترك من المشتركات؛ فالموالي هو من يشاركهم في ما تعاقدوا عليه واتفقوا، والمعادي هو من يخالفهم في ذلك.

والتعاقد الذي يتأسس عليه المجتمع الإسلامي هو التعاقد على جلب المنافع والمحبوبات التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ودفع المضار والمكروهات التي يكرهها الله تعالى؛ فهو تعاقد مُتَّجِه نحو الغاية التي أرادها الله تعالى من خلقه الخلق، وهي إفراده بالعبادة التي هي كمال المحبة مع كمال الخضوع، وإذا كان هذا التعاقد متجهًا نحو هذه الغاية فإن الولاية والعداوة لدى المجتمع الإسلامي متجهةٌ نحو هذه الغاية تبعًا؛ فأولياء الله تعالى هم أولياء المؤمنين وأعداؤه هم أعداؤهم.

ولذا وجدنا مبنى شريعةِ محمد صلى الله عليه وسلم - التي تبين ما يحبه الله تعالى وما يكرهه من الأفعال والأقوال أتم البيان - على التفريق بين أولياء الله تعالى وأعدائه في الأحكام، وعلى هذا تجد كتب الفقه التي دوّنها علماء المسلمين لحفظ الشريعة وفهمها.

وإذ ضعفت المعرفة بالله تعالى وسيطرت المفاهيم الغربية الليبرالية الإلحادية التي لا تُقرُّ بخالق آمرٍ ناهٍ حكيم = انحرفت تبعًا لذلك المعرفة بالغاية التي يتجه نحوها المجتمع الإسلامي في تعاقده الذي به يكون مُجتمعًا، وهي تحقيق عبودية الله تعالى، واتجهت نحو الغايات واللذائذ المادية التي يُوجِّه الفكر الليبرالي الناس إليها.

وهذا الانحراف ظاهر جلي لدى التيارات العلمانية، وأقل منه ظهورًا لدى التيار التنويري الإسلامي، إلا أن الخطورة بالنسبة للتيار الأخير أنه ينسب هذا الانحراف إلى الشريعة بدعوى تجديدها.

ولما أراد التنويريون أن ينتصروا للدولة المدنية الحديثة التي يكون الأساس في تعامل الناس فيها المواطنة لا الدين، موَّهوا بأنهم في ذلك يتبعون إمامًا جليلًا من أئمة المسلمين وهو أبو حنيفة النعمان رحمه الله تعالى، فقال قائلهم: إن أبا حنيفة يقتل المسلم بالذمي وهذا يدل على أن الأساس لديه في التعامل بين رعايا الدولة المواطنة لا الدين. فما هي حقيقة قول أبي حنيفة هذا؟ وما أصله؟

إن الناظر في فقه الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى يجده كسائر فقهاء المسلمين يقسم الديار إلى دار حرب ودار إسلام، ويقسم الناس في التعامل معهم إلى مسلمين وكفار، والكفار إلى حربيين وذميين ومستأمنين ومعاهدين، إلا أنه امتاز عنهم بكثرة تعليقه أحكام الدماء والأموال بالدار، ومن تطبيقات ذلك لديه:

في أحكام الأموال:



1- رجلٌ حربيٌّ دخل دار الإسلام بأمان، ثم أسلم في دار الإسلام، وله في دار الحرب ذرية وزوجة وأموال، ثم ظهر المسلمون على دار الحرب التي هو من أهلها، كان ماله وأهله وأولاده الصغار والكبار فيئًا أجمعين. [«الجامع الصغير» لمحمد بن الحسن الشيباني (ص317)، و«مختصر الطحاوي» (ص290)]

ففي هذه المسألة حكم على مال المسلم بحكم الدار التي هو فيها، فلما كانت الدار دار حرب، وما فيها من النفوس والأموال مباح، استباح المال ولو كان في أصله مالًا لمسلم، إذ إن يدَه زالت عنه باختلاف الدار.

2- ومنها: رجلٌ حربيٌّ أسلم في دار الحرب ثم دخل دار الإسلام، وله في دار الحرب ذرية وزوجة وأموال، ثم ظهر المسلمون على دار الحرب التي هو من أهلها، كان ماله وأهله فيئًا أجمعين، إلا أولاده الصغار، فإنهم يكونون أحرارًا مسلمين. [«الجامع الصغير» لمحمد بن الحسن الشيباني (ص317)، و«مختصر الطحاوي» (ص290)].

وهذه مثل المسألة السابقة إلا أنه لم يحكم باسترقاق الأولاد الصغار لأنه يحكم لهم بحكم أبيهم، قال الجصَّاص: "وهم صاروا مسلمين بإسلام أبيهم هناك، ثم خروج أبيهم إلى دار الإسلام لا ينقلهم إلى حكم الكفر؛ فبقوا على حكم الإسلام إلى أن ظهر المسلمون على الدار؛ فلا يجوز استرقاقهم بعد الإسلام". [«شرح مختصر الطحاوي» للجصاص (175/7)].

وهذا التعليل شاهد آخر على الأصل الذي تقدَّم؛ إذ لم يحكُم بإسلام الأولاد الصغار في الصورة الأولى لاختلاف الدار، وحكم هنا بإسلامهم لأن أباهم أسلم في نفس الدار التي هم فيها.

3- ومنها: رجل مسلم دخل دار الحرب بأمان فاشترى دارًا أو أرضًا أو رقيقًا أو ثيابًا، فظهر المسلمُون على دار الحرب، فأما الدور والأرضون فهي فيء للمسلمين، وأما الرقيق والمتاع فهو للرَّجُل الذي اشتراه. [«الرد على سير الأوزاعي» لأبي يوسف (ص107)].

ففي هذه المسألة حَكَم على العقارات التي كانت للمسلم التي في دار الحرب بحكم عقارات أهل الحرب، وهو أن تكون فيئًا للمسلمين، أما ما يحوزه المسلم من متاع ورقيق فلا تعلُّق لحكمه بالدار لأنه ليس مِنها، قال أبو يوسف رحمه الله في بيان وجه التفريق: "لأن الدُّور والأرضين لا تحول ولا يحرزها المسلم، والمتاع والثياب تُحرز وتحول".[«الرد على سير الأوزاعي» لأبي يوسف (ص110)].

4- ومنها: مسلمٌ ارتدَّ ثم لحق بدار الحرب، فإن لحاقه بدار الحرب ينزَّل منزلة موته، ويحكم على أمواله التي تركها في دار الإسلام بما يحكم على أموال الناس في دار الإسلام؛ فيُقضى بعتق أمهات أولاده، ويعتَق مدبروه من الثلث، ويحل ما عليه من الدين ويقضى عنه ويقسم ماله بين ورثته. [«الجامع الصغير»، لمحمد بن الحسن (ص305-304)].

أما في أحكام الدماء:



1- حربيٌّ أسلم في دار الحرب، وأقام بها ولم يهاجر إلى دار الإسلام، فقتله مسلم مستأمن في دار الحرب، لا يجب عليه القصاص ولا الدية، وتجب عليه الكفارة في القتل الخطأ.

[«أحكام القرآن» للجصاص (3/216)].

2- ومنها مسألتنا هذه التي يتعلق بها التنويريون:

مسلمٌ قتل ذميًّا، فيُقتَل المسلم بالذمي، [انظر: «شرح مختصر الطحاوي» للجصاص (5/350)] لأن الدماء في دار الإسلام معصومة، والحكم في من انتهك حرمةَ دمٍ معصومٍ القصاصُ، فلم يجعل دين المقتول مناط الحكم، وإنما وقوع الجناية في دار الإسلام.

فتبين بعد هذا أن هذه المسألة تطبيق لنظرية مُطَّردة مبنية على تعليق الحقوق بالدار.

ثم إن قسمة الديار لدى أبي حنيفة قسمة دينية؛ إذ العبرة بدار الحرب لديه جريان أحكام الكفر فيها، [انظر: «مختصر الطحاوي» (ص294)، و«شرح مختصر الطحاوي» للجصاص (218-7/215)]

وإذا ثبت أن قسمة الديار هي قسمة دينية تابعة للأحكام المعمول بها في تلك الدار:

1- تبين أنها قسمة متسقة مع الغاية التي أرادها الله تعالى من خلق الخلق وهي تحقيق عبوديته، مخالفة للغايات الليبرالية المادية التي تقررها نظرياتهم الاجتماعية والسياسية.

2- تبيّن الفرق بين قول الإمام أبي حنيفة وبين قول التنويريين؛ إذ إنهم ينكرون هذه القسمة للديار أصلًا، ويُشنِّعون على القائل بها!

وهذا التناقض يعكس ظاهرة جلية في الطريقة التنويرية في تقرير المقالات: وهي اجتزاء مسألة من نظرية فقهية إسلامية لتمرير نظرية غربية، دون اكتراث بأصل تلك المسألة المجتَزَأة.

وأختم بذكر قولٍ لباحث نصراني في توصيف حال النصارى في ظل السلطنة العثمانية -التي كانت تأخذ بمذهب أبي حنيفة- كشاهد تطبيقي تاريخي: "لم يكن المسيحيون يتمتعون بالمساواة التامة مع رعايا الدولة المسلمين، إلا إنهم تمتعوا ببعض الحريات الدينية في ممارسة شعائرهم، وتكلفت الدولة بمسؤولية حماية أرواحهم وممتلكاتهم، وذلك في ظل نظام الملل الذي كان يصنف رعايا الدولة على أساس المذهب الديني وليس على أساس القومية أو اللغة، وكان لكل ملة مسيحية رئيسها الديني وهو البطريرك. يتعارض نظام الملل مع فكرة الدولة الحديثة التي تنظر إلى رعاياها على أساس المواطنة القائمة على المساواة في الحقوق والواجبات، ولكن مفهوم المواطنة هو حديث نشأ في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر، ولم يكن سائدًا في بداية العهد العثماني". [المسيحيون وهاجس الحرية في العصر العثماني، جوزيف أبو نهرا، مركز الشرق المسيحي للبحوث والمنشورات].

لمحات من التاريخ العربي مع لويس ماسينون



عصام المغربي

يُعد (لويس ماسينيون) (1962-1883) واحدًا من أهم المستشرقين في القرن العشرين، وهو وإن لم يقدم للقراء الفرنسيين أعمالًا كاملة من التراث الإسلامي مثل صديقه (فانسون منصور مونتي)، الذي ترجم إلى الفرنسية أجود نسخة من معاني القرآن، وأشرف على ترجمة مقدمة ابن خلدون وغير هذا، إلا أنه كان فاعلًا حقيقيًّا في السياسة والثقافة العربية في بداية القرن العشرين. فلم يكن دور هذا الفرنسي الذي يتكلم العربية والتركية معرفيًّا فقط، بل كانت له علاقات مع أحزاب سياسية، وأسس جمعيات في مصر والعراق، وكان مبعوثًا لفرنسا في الشرق. ويكفيك أن تعرف أنه كان يراسل لورنس العرب، وصحبه إلى القدس بعد هزيمة العثمانيين!

ولويس ماسينيون كان قد بدأ حياته ملحدًا، ثم ما لبث أن صار مسيحيًّا (مؤمنًا)، وهذا الإيمان المسيحي لم يفارقه في إقامته في المغرب ومصر والعراق، وكان له أثره الواضح في نظرته وتحليله للإسلام.

وأما التصوف الإسلامي فكان محور اهتمامه العلمي؛ فكانت رسالة الدكتوراة التي ناقشها عن الحلاج 1922م. وهي في نظره أهم إنتاجه العلمي، ومعجم للمصطلحات الصوفية في نفس العام، وأعيد طبعه منقحًا عام 1954 .

وله دراسات منشورة في مجلة العالم الإسلامي (ومنها نقتبس اليوم مقالنا)، والتي ترأس تحريرها بداية من عام 1924، وفي مجلة الدراسات الإسلامية 1926، وتناولت مواضيع كثيرة مثل مباهلة النبي عليه السلام لنصارى نجران، وشخصية فاطمة بنت محمد عليها السلام، وتقاليد الدفن والموت في العالم الإسلامي، من مشاهدات في قرافة القاهرة. ودرس صاحبنا في الجامعة المصرية، وكان له مقعد دائم للدراسات المشرقية في جامعات فرنسية، وتم اختياره عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة عام 1933 !

على كل حال، فشخصية وأعمال ماسينيون أكبر من أن تلخص في سطور، وهي حقيقة بدراسة كاملة يتصدر لها أهل الصنعة لكشف الغطاء عن هذا الرمز الاستشراقي، فنكتفي بما سبق.

واليوم ننقل لكم تحليلًا لأهم الأخبار الصحفية العربية بمناسبة غزو الجيش الإيطالي للسواحل الليبية، بقلم ماسينيون. وفي هذا العدد -وهو الرقم 18، بتاريخ مارس 1912 من مجلة العالم الإسلامي- يقرأ الشيخ ماسينيون -كما يسميه مونتي- صحفًا مصرية وتونسية وعراقية وسورية انتفضت لنصرة ليبيا العثمانية، ويلاحظ تزايد النزعة القومية الإسلامية والعربية. وهذه القراءة في الإعلام العربي في عام 1912 ليست ذات شجون فقط، فهي تتكلم عن خلافة تتعرض لهجوم نصراني، ولكنها تعرض فوق هذا لمحات من تاريخنا يعجب المتأمل كيف تتكرر اليوم أخطاؤنا القديمة، وكيف يدور كأس المعاناة علينا ولا نتعظ (خبر من صحيفة سورية عن معاناة اللاجئين الجزائريين في حلب).

وإليك بعض الاقتباسات من النص الذي نُشر بالفرنسية، وسأكتفي بالترجمة دون التعليق؛ ففي المنقول غنية لكل لبيب.

ـ الاعتداء الإيطالي على تركيا بهجومها المفاجئ على ليبيا كان له صدى كبير في العالم الإسلامي. وبعد أيام من الصدمة، بدأت حركة واسعة من التجمع لحماية الخلافة التركية في كل أنحاء العالم الإسلامي، وكان العنصر العربي هو الأسرع في نسيان كراهيته القديمة للأتراك (المؤيد، عدد 26 نوفمبر 1911)، حتى أن صحوة القومية الإسلامية دفعت نصارى سوريا للمشاركة في الحملة (رشيد رضا، المؤيد، عدد 18 أكتوبر 1911). وعمرت الصحف بقوائم المتطوعين للمجهود الحربي التركي في تونس ومصر وسوريا، وبعضهم بسبب مراقبة القوى الأوربية قاموا بجمع مساعدات صحية في إطار الهلال الأحمر برئاسة عمر طوسون باشا (المؤيد 7، 14، 17 أكتوبر 1911).

- وهناك في الصحافة الإسلامية شيء صادق، بل مثير للمشاعر، وهو الصدمة التي عبر عنها المسلمون المتأثرون بأوروبا من السقوط الأخلاقي لأوروبا التي تتحدث عن القانون الدولي وتهاجم دولة أخرى. نوع من (خيانة الحبيب)؛ مثل تلميذ صُدم في أستاذه الذي كان يقدسه!

- وفي المقابل، تجدر الإشارة إلى الشائعات البائسة التي كتبتها الصحافة التركية عن هزيمة الإيطاليين في ليبيا، ونقلتها الصحافة العربية! "الانتصار الباهر" و"النصر المبين" عنونت جرائد مصرية (المؤيد- 8 نوفمبر) وكتبت المشير التونسية "نصر كبير وانسحاب للبحرية الإيطالية" (عدد 5 نوفمبر 1911). وعنونت صحف سورية "طرابلس مقبرة الإيطاليين" (المقتبس 23 أكتوبر 1911). وحدها الصحف الجزائرية كتبت بنوع من الموضوعية وهوجمت صحف "الجريدة" المصرية و"الإنسانية" السورية لعدم تغنيها بالنصر الباهر!

نستطيع أن نرى أن الحرب في ليبيا ساهمت في توحيد الإسلام العربي:

- اجتماعات ولقاءات: اجتماع العلماء في الإسكندرية، وقمة إسلامية في سميرن. (المنار 878).

- تشكيل جمعيات جديدة: جمعية الأخوة الإسلامية والدعوة والإرشاد. (التي أنشأت مجلة خاصة بها)

- والشعور العام بتزايد القومية الإسلامية طاغٍ في الصحافة المصرية، التي كتبت "مصر محمد". (المؤيد 23 أكتوبر 1911)، ونفس الشعار نُظم شعرًا (القصيدة 17 أكتوبر 1911).

- وغطت الحرب في ليبيا على حرب فرنسا في المغرب، وعلى معاناة اللاجئين الجزائريين في سوريا. (المقتبس 5 أكتوبر 1911).

- وناقشت الصحف المصرية احترام شهر رمضان، وتكلمت عن إصلاح خطب الجمعة، وعن الاعتكاف، واستنكر بعضها ارتياد المراقص في هذا الشهر (المؤيد 10، 12، 28 سبتمبر 1911)، أما المنار، فاستمرت في نشر تفسير الشيخ محمد عبده، وخصصت صفحاتها للحديث عن الجهاد.

الحركة الفكرية العامة:

- هناك حركة ضد قيام جامعات غربية بمهاجمة التدريس باللغة العربية، كما في الجامعة الأمريكية ببيروت (المقتبس 7 و8 سبتمبر 1911)، وفي دمشق طرحت فكرة إنشاء جامعات إسلامية (المؤيد 28 أغسطس 1911).

وفي مصر عادت الجامعة المصرية للعمل، وقامت انتقادات حادة بسبب تقديم مشروع قانون لتعيد مساطر جامعة الأزهر أمام مجلس الشورى (المؤيد 27 أكتوبر 1911)، ونلاحظ النشاط الإسلامي لنادي الجيزة الأدبي.

وفي الفلسفة، ننوه بجهود الدكتور توفيق صدقي في تكوين حداثة إسلامية، ونشير إلى دراسته عن الفلك والقرآن، ومعجم المصطلحات العلمية العربية.

خاتمة:

هذه أجزاء من قراءة لويس ماسينيون للصحافة العربية، وعبرها للواقع العربي أفق العمل الإسلامي. وسأترك تحليل هذه النقول، وتعليقه عليها للقارئ الكريم. ولعلنا نعود عليها إن شاء الله بمحاولة لربطها بالواقع الحالي للأمة، وتطور مفاهيم بعينها في سياقات بعينها في مجتمعاتنا.



حلفاء الأسد وتحوُّل الموقف المصري تجاه سوريا

حسام عبد العزيز

الرئيس المصري يصف النظام السوري بالقمعي الظالم ..
الرئيس المصري يدعو لتمثيل النظام السوري في مبادرة لحل الأزمة السورية.

شهور تفصل بين الخبرين المذكورين آنفًا، وتشهد على أن الموقف المصري تجاه القضية السورية قد تغير كثيرًا، وأن هذا التغير جاء مصاحبًا للتطور الكبير في العلاقات المصرية مع إيران من جهة، ومع روسيا من جهة أخرى.

كانت البداية ساخنة للغاية، وتوقع المحللون من الدكتور محمد مرسي موقفًا متطرفًا تجاه النظام السوري، فالدكتور مرسي بدأ حملته الانتخابية بتصريحه بأنه رفض مقابلة القائم بالأعمال الإيراني رغم محاولات الأخير المتكررة، وأكد مرسي أنه يرفض أي لقاء إلا إذا تغير الموقف الإيراني من سوريا، واجتمع زعيم الحرية والعدالة وقتئذ بمجلس شورى العلماء وأخبرهم بأنه يرى أن الشيعة أخطر على الإسلام من اليهود.

لم يخيب الدكتور مرسي ظن مؤيديه بعد وصوله إلى سدة الحكم، وفي إيران وصف الرئيس النظام السوري بالظالم القمعي الفاقد للشرعية، في خطوة حظت بترحيب شعبي واسع.

تصريحات مرسي الحازمة تجاه نظام الأسد وترضيه عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في عقر دار إيران صرفت الانتباه عن التنازل الأول تجاه القضية السورية، فلم ينتبه أحد إلى أن مرسي الرافض للقاء دبلوماسي إيراني في مصر ذهب بنفسه إلى طهران والتقى الرئيس أحمدي نجاد وعانقه، بالرغم من أن الموقف الإيراني الداعم لنظام الأسد لم يتغير!



وفي سبتمبر الماضي أطلق الرئيس مرسي مبادرة رباعية لحل الأزمة السورية، وكانت المفاجأة أن إيران هي إحدى الدول الأربع التي اقترحها الرئيس لإنهاء معاناة الشعب السوري، وكشف مستشار قائد "الثورة الإسلامية" للشؤون الدولية في إيران علي أكبر ولايتي أن الرئيس محمد مرسي بعث برسالة لإيران، أكد فيها أنه لا يمكن التوصل إلى حل للأزمة السورية والقضايا الإقليمية بدون مشاركة طهران.

لقد كان التحول في الموقف من إيران غريبًا ومريبًا؛ فإيران التي كانت طرفًا في الأزمة قبل الوصول إلى الرئاسة وكان رفض اللقاء بدبلوماسيها فخرًا -أصبحت بعد الرئاسة أحد أطراف الحل المقترحة، وأخيرًا ضرورة للحل لا يُستغنى عنها؛ بل وفُتحت أبواب مصر للسائحين الإيرانيين، ومن جانبها عرضت طهران مساعدة مصر في المجال النووي.

أما روسيا، الحليف الأكبر لنظام الأسد، والتي تحتفظ بقاعدة عسكرية في طرطوس السورية وتواصل دعم الأسد بصواريخ إس 300 فقد زارها الرئيس المصري، وصرح من هناك بأنه "يقدر جدًّا وجهة النظر الروسية والموقف الروسي تجاه حل الأزمة السورية"، ووصف الموقف الروسي بأنه "موقف قريب جدًّا للموقف المصري". هنالك بث نشطاء مقطعًا مرئيًّا للدكتور مرسي قبل الانتخابات قال فيه إنه التقى السفير الروسي بالقاهرة، وانتقد موقف موسكو الداعم لنظام بشار الأسد! ووثق النشطاء بهذا المقطع تحول مرسي من اعتباره روسيا داعمًا للأسد إلى الثناء على مواقفها "القريبة جدًّا من الموقف المصري"!

العجيب أيضًا أن التقدير المصري للموقف الروسي جاء بعد أشهر من قمة دول عدم الانحياز، التي اتهم فيها مرسي كلًّا من روسيا والصين بشل يد مجلس الأمن عن حل الأزمة السورية، بسبب استخدام الأخيرتين حق النقض (الفيتو) لإحباط مشروع قرار، يقضي بفرض عقوبات على نظام الأسد إذا لم يسحب قواته وأسلحته خلال عشرة أيام من صدور القرار.

تعرض إخوان سوريا لضغوط شعبية شديدة بفعل تصريحات مرسي في روسيا، ولم يتخيل أحد أن يخاطب الرئيس المصري بوتين (المحارب) بـ "أخي وصديقي العزيز"، واضطر الإخوان السوريون هناك إلى استنكار تصريحات مرسي، وقالوا في بيان رسمي: "لقد كان مؤلمًا لأبناء شعبنا ما سمعوه من تصريحات مرسي في موسكو. إنّ الدم السوري أغلى وأقدس من أن يكون مادة للمجاملات البروتوكولية والدبلوماسية".

في موسكو، حصل الرئيس على وعد روسي بالتعاون في المجالين النووي والصناعي، وأثنى هناك على الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وعلاقاته بالاتحاد السوفيتي السابق، في مخالفة صريحة لأدبيات الإخوان التي تعتبر التقارب الناصري السوفيتي سببًا لخراب مصر اقتصاديًّا. (انظر كتابًا للمرشد الأسبق لجماعة الإخوان الأستاذ عمر التلمساني بعنوان: قال الناس ولم أقل في حكم عبد الناصر).

لقد شهد خطاب الرئيس المصري بشأن الثورة السورية تحولًا فجًّا، من أبرز مظاهره وصف الرئيس المصري الثورة السورية بالحرب الأهلية خلال لقاء بوزير الدفاع الأمريكي تشارلز هيجل. (راجع بيان الرئاسة بتاريخ 24 أبريل).

ويبدو أن الخطاب الإخواني أصابته العدوى؛ فالبيان الذي أصدره حزب الحرية والعدالة لإدانة العدوان الصهيوني على الأراضي السورية تضمن عبارة: "رغم اختلافنا مع النظام السوري الحالي". وهكذا سخر نشطاء على مواقع التواصل الاجتماعي من وصف الإخوان موقفها من النظام السوري بـكلمة "الاختلاف" المائعة.

ومنذ أيام، دعا الرئيس مرسي إلى تمثيل نظام الأسد في المبادرة الرباعية لحل الأزمة السورية، في تجاهل صريح لإرادة الثوار الذين رفعوا شعار "لا حوار قبل رحيل الأسد"! إنها الإرادة التي بنى عليها الرئيس موقفه إزاء القضية فور تسلمه مهام منصبه كرئيس لمصر. المضحك أن الرئيس مرسي اشترط أن يكون ممثل نظام الأسد ممن لم تتلطخ أيديهم بدماء الشعب السوري!

لم يقدم الرئيس شيئًا ملموسًا للثوار، لم يعترف الرئيس بالائتلاف الوطني السوري، ولم يسلمه سفارة نظام الأسد، رغم تصريحات الرئيس السابقة الداعمة للائتلاف. لم يدعم الرئيس تسليح الثوار في مقابل التسليح الإيراني الروسي المتواصل للأسد، في موقف مماثل لموقف المرشح الرئاسي الخاسر حمدين صباحي الذي أعلن إبان حملته الانتخابية رفضه تسليح الجيش الحر.

لا زال الرئيس مرسي يطالب برحيل بشار الأسد ومحاكمته، وهو الموقف الثابت الوحيد الذي اعتمدت عليه الرئاسة والخارجية المصرية في الهروب من الاتهامات بتبديل المواقف تجاه حليفي الأسد (روسيا وإيران) والمعارضة السورية التي لم يستشرها الرئيس في آلية الحل.

هذا التحول يجعلنا نوقن بأن الموقف المصري الأول لم يبق منه سوى رغبة كلامية في إسقاط الأسد، حتى هذه الرغبة لم تسلم من تناقضٍ كشفته الدعوة إلى إشراك نظام الأسد في الحل!

يقول المعارض السوري "محمد إقبال بلو":

" إن جهود مرسي كلها لن تنتج أي حل يقبل به السوريون؛ فهو أصلاً لا يسعى لإيجاد ذلك، ويعمل بغض النظر عن إرادة الشعب السوري". ويضيف بلو مخاطبًا الرئيس المصري: " نقول لك الثورة مستمرة ولن تتوقف، لا بمبادرات ولا بأية تحركات سياسية أخرى غير مجدية، وتتوقف فقط عند سقوط النظام المجرم بكافة أركانه ومرتكزاته، ولن يكون النصر إلا لإرادة الشعب مهما طال النزيف السوري".

لقد جاء أداء الرئيس حيال الأزمة السورية تقليديًّا ويفتقر إلى الإبداع؛ فاعتماد الحل السياسي الإقليمي بمعزل عن إرادة الشعب السوري، وإشراك نظام الأسد وإيران في مبادرة الحل، وتحول المواقف الواضح =كلها عوامل أعلنت فشل مصر في لعب دور ريادي حقيقي، وأثبتت عجز الرئيس عن تغيير قواعد اللعبة.

الطامة الكبرى أن أداء الرئيس تجاه الأزمة السورية لم يعكس خلفيته الإسلامية؛ فخضوعه للضغوط، وقابليته للتراجع، وتصريحاته في البرازيل بأن مصر مهيئة للعب دور "وسيط السلام الذي لا مصلحة له في النزاع السوري" =ذكرتنا بتعاطي المخلوع مع أزمات مشابهة.

والسؤال الآن: هل هذا الموقف المخزي يجلب على أصحابه رضى الله؟ أم سخط الله وعقوبته؟



طفل سوريّ عام 2050

لمياء ماير

على يميني أجلست "محمود" الطفل السوري اللاجئ، منكفئًا على الكتاب ينظر للأحرف بيأس ورجاء..

"اكتب يا محمود: آي- بي- سي"

أمرتُه، لم أر جيدًا؛ فأجلسته على يساري، بدأ الطفل ذو الست سنوات يكتب..

رفعت عينيَّ فأخذني جانب وجهه الجميل ..

جبهته الصغيرة تعرش فوقها أجمة ذهبية متكاثفة في "القامشلي"، وتهبط على خديه في "الرقة وحدود العراق" سهلًا أبيض ينتهي بالأذنين، ثم تسافر للخلف حيث يزهر الربيع حول مساجد "حماة وحمص"، وتغادر صيفًا إلى رقبة الجنوب في "دمشق ودرعا".

أشتم فيه عبق الزهر الشامي مخلوطًا بصخور البحر العتيقة على ساحل "اللاذقية وبانياس وطرطوس"، ويلوح مفرقا "الفرات والعاصي" كنثر ماس يشق بحور الذهب فوق رأسه..

جميل أنت يا محمود.. فيجيبني: "شكرًا يا خانوم".

خانوم! الطفل ينطق فارسيا؟!

فجأة يتناثر الحوار مع الهواء، وتتفكك أجزاء الواقع، وأقفز بخيالي لعام 2050، فكأني أرى محمودًا الآن يسير بعمامة سوداء في طرقات دمشق، تحت إبطه مجلد لـ"شرح اللمعة الدمشقية"، ويجلس أمامه عشرات من طلاب السطوح، ويبدأ الشرح..



محمود الآن يحتل منصب الفقيه المجتهد في "الحوزة الدمشقية"، التي تتصل مباشرة بالحوزة الشيعية الرئيسية في "قم المقدسة"، والتي بدورها تسيطر على جميع المؤسسات والمساجد التي تقام بها صلاة الجمعة في جميع المدن، إلا حمص و حماة.

هاتان المدينتان اللتان لا تنقطع فيهما محاولات التمرد من "الأقلية" السُّنية، ويفتخر محمود أن حوزته أُخرجت رئيس الهيئة القضائية في سوريا، والتي أصدرت عشرات من أحكام الإعدام على إرهابيي السنة، الذين تمت تعريتهم أمام المجتمع الشيعي، الذي ينام وادعًا في رعاية الجيش المرتبط بمراجعه العظام.

سوريا شيعية! بعد أربعين سنة من احتلالها بسيف "إسماعيل الصفـوي".. عفـوًا "نجاد الصفوي"، حين لم يوجد "سليم الأول" ليهزم جند الصفوي ويشرد بهم، قبل أن يقيموا دولة الشيعة المجـوس على أرض سوريا!

سوريا شيعية! يحتلها أحفاد اسماعيل الصفوي في ذل وغثاثة من ملايين المسلمين، ويعلن نعيب البوم ونعيق الغربان سقوط أرض الحسن والأصالة والحضارات، معقل السنة سوريا في يد الشيعة!

يبدأ السفاح الصفوي باحتلال ساحل الشام كما بدأ جده باحتلال تبريز في غابر الزمن، وينطلق منه لبطن سوريا وحشاها كما انطلق جده في كل أشبار إيران.

ويجتاح السفاح الصفوي المدينة تلو المدينة؛ فيقتل رجالها ويذبح الأطفال، ومن يريد النجـاة فليعلن اعتناقه لدين مراجع الشيطان وفقيه إبليس، إما الموت أو التشيع!

في 2013، يعيد الحفيد تاريخ جده، فكما تم استقدام علماء الشيعة من جبل عامل في "لبنان" لتشييع إيران وتأسيس الدولة الشيعية الصفوية من خمس قرون، يستقدم الآن السفاح الصفوي علماء الشيعة أفواجًا إلى سوريا، ولكن هذه المرة لن يأتوا من جبل عامل بل سيأتونها من حوزات "قم والنجف"؛ حيث انتشر التشيع وتعمق في ضعف وهوان من أصحابها.

أصبحت سوريا الآن محتلة، وقد وضع الصفوي يده على جميع المساجد ومؤسسات الخير في طول الشام و عرضها.



يقوم الصفوي بتدمير المساجد السنية وحرقها من نار صدره التي لا تنطفئ، ويكون التدمير الأشد من نصيب المساجد الأقدم والأثمن في قلوب المسلمين.
يباح دم أهل السنة الآن ويجبر الخطباء على سب الخلفاء الثلاثة!
رباه! هل أرى محمودًا يومًا يحتفل بعيد الغدير؟ ويسب صحابة رسول الله؟
هل يأتي يوم على هذا الطفل الجميل فأراه شيخًا يسب أمهات المؤمنين، ويغرق ببركاته من يذبح أكبر عدد من أطفال المسلمين؟
هل يأتي يوم نرى سوريا وقد غرقت في ظلام العقيدة المختلقة، وضاع إرثها وتبدد نورها، وصارت جزءًا من ملك حلفاء اليهود؟

تتملكني المخاوف، فأحاول أن أحشدها مع التاريخ الطويل في عدة أسطر لعلها مع غيرها تشكل شيفرة، سيجدها موهوب ما في زمانات قادمة، يظهر فيها ليبرَّ بالسيف أمه وأباه.
أحتضنُ الفتى محمودًا..

يغرقني الألق الذهبي في عينيه، يغمرني في دوامات الهوى المختفي في تبر يغطي وجهها العتيق..
سوريا .. سوريا الحبيبة لا تبكي قتلًا و دمارًا، سوريا تبكي عشقًا راحلًا، وأحلامًا كانت بساتين وأزهارًا فصارت كوابيس ومخاوف تلهب أيامها!
أن يحتلها المجوس، أن يتخلى عنها أحفاد الملوك على الأسرَّة، أن يتركوها في يد الوحش الكاسر الذي تركوا في يده بلاد فارس فذلت بهم من بعد عز!

و يظل السؤال..

هل هناك من يصدق أننا نشهد حالة ثورية؟ أم نشهد زحفة صفوية؟ وكأن إسماعيل قد قام من سراديب الذاكرة ليحارب الانكشارية الذين أنهكهم التمزق في دولة العثمانيين..
و هو يعلم جيدًا أن لا صلاح الدين هناك ليوقف مده في مصر!



(1)

ممهدات في نقض العهد بالتنصير والاستهزاء

كان الحامل على كتابة هذا المبحث ظهور بعض الشيوخ الفضلاء مع ممثل نصراني في برنامج تلفزيوني، ذلك الممثل مشهور بأعماله الفنية المسفة، التي لا تخلو من مشاهد جنسية، وكلمات نابية، فضلًا عن أن برنامجه قائم على السخرية المقيتة من تيار الإسلام السياسي، على نحو غير معقول من الفجور؛ كإحضار خروف في ستوديو البرنامج تجسيدًا للإخوان المسلمين!

وبقطع النظر عما سبق؛ فإن خلفية ذلك النصراني -محل النزاع الآتي- هي المشكل الأكبر في ذلك الصدد، حيث إنه ممثل تنصيري قديم، قام بأداء العديد من الأفلام التنصيرية للكنيسة المصرية، لا يخلو أغلبها من انتقاص النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيبه تلميحًا أو تصريحًا.

-ولا ريب عند أهل العلم أن التنصير والتبشير في بلاد المسلمين من قِبل المعاهدين والذميين = ناقض لعهدهم، من وجه: أنه حراب لله والرسول، ودعوة للكفر به ومضادة دينه، ومن وجه: أنه يستلزم الطعن في دين الإسلام؛ ولذا كان من الشروط العُمَرية المشهورة لأهل الذمة: "ولا نرغب في ديننا، ولا ندعو إليه أحدًا".

قال ابن القيم معلقًا على هذا الشرط: "هذا من أولى الأشياء أن ينتقض العهد به، فإنه حراب الله ورسوله باللسان، وقد يكون أعظم من الحراب باليد، كما أن الدعوة إلى الله ورسوله جهاد بالقلب وباللسان وقد يكون أفضل من الجهاد باليد".[أحكام أهل الذمة (3/1254)].

وفي كلامه السابق -فوق أنه يصير بذلك حربيًّا هدر الدم لا عهد له- أنه أعظم من المحارب باليد، ونص عليه تأكيدًا؛ فقال: "ولما كانت الدعوة إلى الباطل مستلزمة -ولا بد- للطعن في الحق، كان دعاؤهم إلى دينهم وترغيبهم فيه طعنًا في دين الإسلام، وقد قال تعالى:﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾[التوبة: 12]، ولا ريب أن الطعن في الدين أعظم من الطعن بالرمح والسيف، فأولى ما انتقض به العهد الطعن في الدين، ولو لم يكن مشروطًا عليهم؛ فالشرط ما زاده إلا تأكيدًا وقوة". [أحكام أهل الذمة (3/1255)].

وإذا بينّا أنه بمجرد دعوته وتنصيره يكون طاعنًا في الإسلام؛ فينبغي أن نبين أن مجرد كفر أهل الذمة بالإسلام لا يقتضي أن يكون طعنًا يستوجب نقض العهد؛ فإن هناك فرقًا بين الكفر المجرد -مع استلزامه التكذيب- وبين الطعن في دين الإسلام.

قال شيخ الإسلام: "ما يختص بالقدح في النبوة: فإن لم يتضمن إلا مجرد عدم التصديق بنبوته =فهو كفر محض، وإن كان فيه استخفاف واستهانة مع عدم التصديق =فهو من السب". [الصارم المسلول (ص531)].

وقال: "الذمي يجب التفريق بين مجرد كفره به وبين سبه، فإن كفره به لا ينقض العهد ولا يبيح دم المعاهد بالاتفاق لأنا صالحناهم على هذا، وأما سبه له فإنه ينقض العهد، ويوجب القتل". [الصارم المسلول (ص532)]



ويقول في التفريق بين الإخبار عن الاعتقاد، وبين الزراية والطعن؛ فقال عن الحالة الأولى: "من أخبر عن معتقده بغير طعن فيه مثل أن يقول: أنا لست متبعه، أو لست مصدقه، أو لا أحبه، أو لا أرضى دينه، ونحو ذلك =فإنما أخبر عن اعتقاد أو إرادة، لم يتضمن انتقاصًا؛ لأن عدم التصديق والمحبة قد يصدر عن الجهل والعناد والحسد والكبر وتقليد الأسلاف وإلف الدين، أكثر مما يصدر عن العلم بصفات النبي". [الصارم المسلول (ص541)]

ثم قال عن الحالة الثانية: "خلاف ما إذا قال من كان؟ ومن هو؟ وأى كذا وكذا هو؟ ونحو ذلك، وإذا قال: لم يكن رسولًا ولا نبيًّا، ولم ينزل عليه شيء، ونحو ذلك =فهو تكذيب صريح، وكل تكذيب فقد تضمن نسبته إلى الكذب ووصفه بأنه كذاب. لكن بين قوله: "ليس بنبي" وقوله: "هو كذاب" فرق؛ من حيث إن هذا إنما تضمن التكذيب بواسطة عِلْمِنَا أنه كان يقول: إني رسول الله، وليس من نفى عن غيره بعض صفاته نفيًا مجردًا كمن نفاها عنه ناسبًا له إلى الكذب في دعواها". [الصارم المسلول (ص541)]

فظهر من ذلك أن هذا النصراني -محل النزاع- حربي من وجهين: من جهة كونه منصرًا داعيًا لدينه المستلزم الطعن في الإسلام، ومن جهة كونه سابًّا للنبي صلى الله عليـه وسلم؛ لما تتضمنه تلك المواد من أن النبي كاذب، وأن كل من بعد المسيح أنبياء كذبة، مما يكون إظهاره في بلاد المسلمين حربًا ونقضًا للعهد.



ثم إنه نقل غير واحد من الثقات المطلعين على ملف التنصير اطلاعًا تامًّا، غير المتهمين، أن هذا الممثل المذكور قد شارك في المسرحية المسيئة -المشهورة- بالتدريب والإعداد، وهذا وإن كان غير مؤثر في نفس النتيجة التي خلصنا إليها بشأنه إلا أنه يزيدها قبحًا وإجرامًا، فإن إظهار الطعن في صورة أعمال فنية تنشر وتعرض لهو من أشد الحراب.

قال الشيخ: "إظهار التكذيب على وجه الطعن في المكذب مثل وصفه بأنه ساحر خادع محتال وأنه يضر من اتبعه وأن ما جاء به كله زور وباطل ونحو ذلك، فإن نظم ذلك شعرًا كان أبلغ في الشتم؛ فإن الشعر يحفظ ويروى وهو الهجاء، وربما يؤثر في نفوس كثيرة مع العلم ببطلانه أكثر من تأثير البراهين؛ فإن غنَّى به بين ملأ من الناس =فهو الذي قد تفاقم أمره". [الصارم المسلول541]

وقال رحمه الله: "من المعلوم أن من أظهر سب نبينا في وجوهنا وشتم ربنا على رؤوس الملأ منا وطعن في ديننا في مجامعنا =فليس بصاغر؛ لأن الصاغر الذليل الحقير وهذا فعل متعزز مراغم؛ بل هذا غاية ما يكون من الإذلال لنا والإهانة .

وإذا كان قتالهم واجبًا علينا إلا أن يكونوا صاغرين وليسوا بصاغرين = كان القتال مأمورًا به .

وكل من أمرنا بقتاله من الكفار = **فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.**

وأيضًا فإنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية =لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها، ولو عقد لهم =كان عقدًا فاسدًا، فيبقون على الإباحة". [الصارم المسلول (ص12)] .

(2)
علاقة الجلوس مع الحربي بالولاء والبراء

- بظهور ما سبق، وقد أطلت في بيانه لتأثيره في الحكم محل البحث في الواقعة المذكورة، فإنه ينبغي أن يكون عنوان البحث: حكم مجالسة الحربي.

*ويتمثل البحث في تلك المسألة فيما دفع به الشيخ الفاضل في تلك القضية، وهو: كون مجرد الجلوس مع أي شخص كائنًا من كان -ليس داخلًا في باب الولاء والبراء، وأن العبرة بخلو المجلس نفسه من المحرمات.
*واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: 43 - 44] ، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء: 140]

فأقول، وبالله التوفيق:

1 - المحكم أن من أجناس العقوبات المشروعة للمبتدع والفاسق المسلميْن، فضلًا عن الكافر، فضلا عن المحارب بالكتاب والسنة والإجماع =الهجر والمتاركة.

ولا يختلف أهل العلم قط في أن الهجر والعزل والمقاطعة من صنوف البراءة من المبتدعة من أهل القبلة، فضلًا عن الكفار المحاربين .
وكون تلك الأفعال عقوباتٍ يقصد منها الزجر لا ينافي أنها من البراءة من تلك الأفعال وأصحابها؛ فإن البراءة تكون بالقلب، وباللسان، وبالفعل.

قال شيخ الإسلام: "الهجر من باب العقوبات الشرعية؛ فهو من جنس الجهاد في سبيل الله، وهذا يُفعل لأن تكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله. والمؤمن عليه أن يعادي في الله ويوالي في الله".
ثم قال: "وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة =استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر؛ فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة". [المجموع (209-208/28)].



فجعل رحمه الله التعزير بالهجر وغيره من العقوبات الشرعية =من معنى البراءة من المعصية وأهلها؛ فكيف بالكفار المحاربين المستهزئين، كما سيأتي؟

- وعلى ذلك يكون هذا الباب من أبواب الولاء والبراء قطعًا، ويكون إخرج الهجر وترك مجالسة المبتدع والكافر من كونه تبرؤًا منه =خطأ يجب دفعه عن الشرع الشريف؛ فإن المستقرئ لكلام وأفعال السلف في باب ذم البدعة وأهلها، وما ورد عنهم من النهي عن مجالسة أهل البدع بل وعيادتهم ورد السلام عليهم بغض النظر عما سيأتي من كونه مصلحيًّا وليس مطلقًا في المبتدع المسلم =يعلم يقينًا أن هذا كله من الولاية للسنة وأهلها، والبراءة من البدعة وأهلها، ونحن ذكرنا هذه الأبواب لا لتسلم بخيارات السلف فيها؛ وإنما لتعلم أن إلحاق هذه الأبواب بباب البراءة هو قول علمي، وليس شيئًا يدعيه صبيان الكتاتيب لينكره منكِر.

2 - لا تنافيَ بين أن الهجر للمبتدع المسلم مصلحيّ بحسب كثرة المصلحة والمفسدة في هجره أو وصله، وبين كونه من باب الولاية والبراءة.

ونكتة الباب: أن المسلم ولو كان أفجر المسلمين فإنه يبقى له من الولاية والمحبة والإكرام ما يستحقه بأصل عقد الإسلام، بخلاف الكافر كما سيأتي.

فيقوم في هذا الباب أصلان: أصل تولي المسلم لإسلامه، وما يقتضيه من حقوق، وأصل البراءة مما يبغضه الله ويسخطه؛ فتقع الموازنة بين من كانت المصلحة في هجره، ومن كانت المصلحة في وصله، مع بقاء أصل الإنكار عليه. أما الكافر؛ فإن الشرع الشريف قد قطع بينه وبين المسلم كل ولاية، ولم يبق بينه وبين المسلمين وشيجة ولا حبل إلا: الذمة، أو الأمان، أوالهدنة.

قال شيخ الإسلام: "ليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله؛ فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه". [مجموع الفتاوى (28/ 209)]

إذا ظهر السابق =عُرف أن ما أمر به الشرع من البر والإحسان للكافر ليس مستحقًا بسبب نوع ولاية؛ إذ إنها مبتوتة بأصل الدين، وإنما هو لأجل الحبل بينهم وبين المسلمين: ذمة، أو أمانًا، أو هدنة.

ومتى خلا الكافر من هذه الأصناف من العقود مع المسلمين =لم يكن له عليهم من حق، ولا بر، ولا إحسان، بل هو حربي، معادٍ لله والرسول والمؤمنين، يجب قتاله، في الآجل أو العاجل، متى تحققت القدرة، ليكون الدين كله لله.

- ومتى تقرر ذلك عندك =تبينت الخلط العظيم الذي دخل على كل من تكلم في هذا الباب بأن الهجر مع الكافر الحربي مصلحي، وأن العبرة بمضمون الوصل وأن لا يكون محرمًا؛ إذ لم يفرق بين الموازنة التي تقوم في حق المبتدع المسلم، وبين فقدها في الكافر الحربي؛ لعدم وجود أصلين -ولاية وبراءة- في حقه أصلًا؛ فتنبَّه لهذا فإنه -على جلائه- لب الباب برمته.

3 - يبقى أن الشرع قد أقر دعوة الكفار أجمعين، ولو كانوا محاربين، ومن ثَمَّ فلا بأس اتفاقًا من الجلوس مع الكافر ولو حربيًّا، لغرضين: إما دعوته للإسلام، وإما مناظرته وكشف باطله، وهذا هدي الأنبياء والعلماء.

فإن موسى دخل على فرعون -كما استدل الشيخ الفاضل- لا ليجالسه ويؤانسه، وإنما ليدعوه إلى الله، ويظهر كذبه وكفره، واجتمع إبراهيم بقومه عبدة الكواكب ليفحمهم ويناظرهم في عبادة الكواكب وفي عبادة الأصنام، ولا يقول عاقل قط إن هذه المجالسة من جنس مجالسة الرجلِ الرجلَ يؤانسه، ويهش في وجه ويبش، ويعانقه ويقبله، ويقول له: "حضرتك"، و"بارك الله فيك"، و"أنت (فظيع) يا هاني"، ويرفع معه علمًا وطنيًّا، ويكلمه في الشأن العام وأحوال السياسة.

وهذه السيرة النبوية الصحيحة، وقبلها كتاب الله، ونصوص السنة الثابتة، بله وسير السلف الصالحين، مَنْ منهم حصل منه مثل ذلك الفعل مع الكافر المحاد لله والرسول الطاعن فيه الداعي للكفر؛ فجلسوا معهم مبتسمين ضاحكين متكلمين في غير الزجر والإنذار والتقبيح ؟ فإذ لم تجدوا؛ فلأي شيء فعلوا ذلك إن لم يكن براءة من هؤلاء المشركين النجسين؟



4 - وإذا ظهر لك ما سبق من بيان =عرفت أنه يستحيل في شرع الله تجويز مجالسة الكافر المحارب لله والرسول إلا لغرض دعوته، أو تقريعه وإفحامه.

فإنَّ مَنْ حقُّه في الشرع القتل والإتلاف لا يُتَعَرَّضُ له بالإكرام والمهادنة؛ فإنه إن لم يُقْدَرْ على قتله للمفاسد التي تترتب على ذلك =لم يُسْتَعَضْ عن ذلك بمجالسته ومؤانسته والتبسم في وجهه واحتضانه ومداعبته؛ فإن هذا مما تأباه الفطر الصحيحة، والعقول السليمة، قبل الخوض في النظر الشرعي.

قال العلامة السبكي في هذا المعنى في مقدمة كتابه: "وليس لي قدرة أن أنتقم بيديّ من هذا الساب الملعون, والله يعلم أن قلبي كاره منكر, ولكن لا يكفي الإنكار بالقلب ها هنا, فأجاهد بما أقدر عليه من اللسان والقلم, وأسأل الله عدم المؤاخذة بما تقصر يدي عنه, وأن ينجّيني كما أنجى الذين ينهون عن السوء, إنه عفو غفور". [السبكي: السيف المسلول على من سب الرسول (ص114)]

وقال شيخ الإسلام: "لا ريب أن من أظهر سب الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة وشتمه =فإنه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر مما لو سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم .

فإن هذا يثير الغضب لله والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظًا أعظم منه؛ بل المؤمن المسدد لا يغضب هذا الغضب إلا لله، والشارع يطلب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم، وهذا إنما يحصل بقتل الساب". [الصارم المسلول (ص20)]

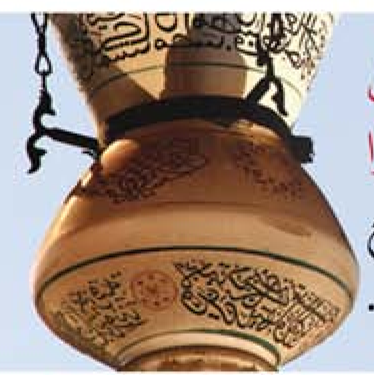
فهاتِ عوامَّ المؤمنين المعظمين لله والرسول، قبل فقهائهم وأئمتهم أولياء الله تعالى، وسلهم:هل تجوز مجالسة نحو زكريا بطرس، ومرقص عزيز، بل شارون، وبيريز، وبشار الأسد، ونحوهم، للحوار العام حول الشأن السياسي، لا الدعوة والتقريع والتحذير، وكلامه كلامًا ليس منه الغضب لجانب الشريعة المعظم، مع الابتسامة والمجاملة، وقول "حضرتك"، و"بارك الله فيك" ونحو ذلك لأمثال هؤلاء المجرمين أئمة الكفر؟

واستفتِ قلبك قبل هؤلاء وسَلْه: هل يصح أن يُنسب هذا للدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؟ فإن الإثم ما حاك في الصدر، والصادق المصدوق قد قال: "استفت قلبك، ولو أفتاك الناس".

- ومن استقرأ فقه الأئمة، وعرف فهمهم لذلك الباب وجد الاطّراد والسلامة فيه؛ فإنهم يعتبرون الكافر الحربي معدومًا، مقتولًا بسيف الشريعة المطهرة، والمعدوم شرعًا كالمعدوم حسًّا؛ فهو مفقود ولو كان موجودًا، ومن ثم نص الفقهاء -كالشافعية والحنابلة- أنه إن كان معه ماء لا يفضل عن وضوئه واحتاجه رفيقه، أو حيوان محترم =تيمم، وقالوا: الحيوان غير المحترم: كالكلب العقور، والخنزير، والمرتد، والحربي، وذلك لكون الشرع قصد إلى إتلافهم، ومدهم بالمطعوم فيه استبقاؤهم، فتدَّبر!

- ولا ينفع مع ذلك ادعاء أن الإنكار والبغض قائمان بالقلب؛ فإن هذا لابد أن يظهر على الجوارح بحسبه، ولا كفر أعظم من كفر المحارب المحادّ لله والرسول، ولا براءة أظهر وأشهر من البراءة منه، قال شيخ الإسلام:" والموالاة والموادّة وإن كانت متعلقة بالقلب لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة الكافرين ومباينتهم.ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سببًا قريبًا أو بعيدًا إلى نوع ما من الموالاة والموادة =فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة، مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة كما توجبه الطبيعة وتدل عليه العادة". [اقتضاء الصراط المستقيم (184-1/183)]

- ولا ينفع توهم المصلحة في مجالسة الكافر الحربي الناقض للعهد، إلا المصلحة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي النذارة، وتبليغ كلمة الله، لا الكلام في الشؤون العامة والسياسات، مما شأنه مسامرة المسلمين، قال شيخ الإسلام: "الكلمة الواحدة من سبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم =لا تُحتَمَل بإسلام ألوف من الكفار. وَلأَن يظهر دين الله ظهورًا يمنع أحدًا أن ينطق فيه بطعن =أحبُّ إلى الله ورسوله من أن يدخل فيه أقوام وهو مُنتهَك مستهان". [الصارم المسلول (ص505)]



5 - استدل بعض المتكلمين في ذلك الموضوع بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ [النساء: 140] وقال إن الجلوس مع المستهزئين المحاربين جائز حال عدم خوضهم واستهزائهم بالله وآياته ورسوله.

وإذا تبين لك ما سبق =عرفت المعنى بوضوح وجلاء، وأن الآية محرمة للجلوس مع الكفار المستهزئين المحاربين لدعوتهم أو مناظرتهم حال استهزائهم، فإذا تركوا الاستهزاء =عاد الحكم لأصله قبل النهي، وهو جواز مجالستهم المباحة أصلًا، وهي: مجالسة المناظرة والدعوة؛ فليت شعري أين هذا من تجويز المسامرة والمحاورة والملاطفة والمباسمة، وجعل الآية دالة عليها؟!

- فليس في الآية إباحة ما هو فوق المباح؛ فكأن معناها: يا أيها المؤمنون لا يحل لكم القعود مع الكفار لدعوتهم أو زجرهم وفضحهم حال استهزائهم، فإن تركوا الاستهزاء جاز لكم القعود معهم لأجل ذلك.

فأنَّى يفهم من الاستثناء في الآية أنه إباحة مطلقة، تبيح ما قطعت الشريعة كتابًا وسنة وإجماعًا بحرمته؟! فإنَّ هذا كفَهم مَن يفهم من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة: 2] =أنها تبيح صيد المحرم الأصلي كالخنزير؛ فهل يقول بذلك فقيه؟!

- وذلك منصوص الآية، فإن آية النساء مشيرة لآية الأنعام:

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام: 68]، وقد قال الحق بعدها: ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 69] فتحصَّل أن غرض المجالسة: ﴿ ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾، وهو التقرير الذي استفضنا في بيانه، وأنه المصلحة الوحيدة التي نظر إليها الشرع في تجويز مجالسة الحربي المستهزئ.

- وقد أشار لغرض المجالسة الذي نزلت فيه الآية ابنُ جريج فقال: "كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه، فإذا سمعوا استهزءوا، فنزلت...".

وهو صريح في أن النهي كان عن مجالسة الإنذار حال الاستهزاء، وهي المجالسة التي ستباح بعد الاستهزاء.

- أضف إلى ذلك أن بعض المجالسة التي كانت تقع من الصحابة لغير الإنذار كانت مع المنافقين، ولم يكونوا معينين بأسمائهم، وإنما كانت تُسمع من بعضهم الكلمة بعد الكلمة، ويظهر منهم لحن القول، وقد منع الشرع عقوبتهم لكي لا يقال إن محمدًا يقتل أصحابه، فكان اشتباه أسمائهم ووقف عقوباتهم وعدم استبانة أحوالهم سببًا في وقوع المجالسة لغير الإنذار؛ إذ الصحابي المجالس إنما يجالس مَن ظاهره الإسلام، ولم يقطع الوحي ببيانٍ في أحوالهم يظهر عقوباتهم إظهارًا يقتضي البراءة التامة منهم، وهي حالة لا علاقة لها بالمحارب ناقض العهد المتبين أمره المستوجب للبراءة والعقوبة بقدر ما يستطيعه المسلم؛ فإن الميسور لا يسقط بالمعسور.

لذلك لو اكتفى الشيخ بالاعتذار بعدم العلم بحال المذيع =لهان الأمر، ولكنه أبَى بعد علمه إلا أن يجعلها قاعدة عامة تهدر بابًا من أبواب البراءة الجليلة في الشرع الحنيف، وهو تحريف للدين يستوجب الإنكار.

- كيف وقد ذهب بعض السلف إلى حرمة الجلوس أصلًا كالحسن البصري؟ وسِرُّ ذلك عنده أن هذه الآية مشيرة لآية الأنعام، والحال أنهم ظالمون حال الاستهزاء وبعده ماداموا موصوفين بالاستهزاء؛ "قال الحسن: وإن خاضوا في حديث غيره لا يجوز القعود معهم؛ لقوله في سورة الأنعام: ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾، والأكثرون على أنه يجوز". [راجع تفسير السمعاني (1/492)]، والشأن هنا ليس في ترجيح تفسير الحسن، وإنما لنلفتك إلى جريان القول العلمي عند السلف بالبراءة منهم بالمجالسة حتى للنذارة؛ فما بالك بما دونها؟ فكيف يُنكر هذا إنكارًا يلحقه بما لا يعرفه أهل العلم، والحال أنه قول سلفي؟ إن لم تسلم به =فلا تجعله كأنما لم يقل به أحد.

- كيف وقد ذهب أغلب الفقهاء لحرمة بدء الذمي بالسلام، وذهب بعضهم لحرمة تهنئته بفرح، وتعزيته في موت، وحرمة مصافحته، أو كراهته، وحرمة تقبيله؟ وهذا كله في حق الذمي ونحوه من المستأمنين والمعاهدين؛ فكيف لمن فقه هذه الأبواب أن يقول بجواز مؤانسة الكافر الحربي منقوض العهد، ومجاملته ومصانعته، وكلامه في غير ما أمر الله به في مثله؟

وينبغي أن نوضح: أن الاستدلال بما سبق هنا من خلاف العلماء في التهنئة والتعزية والمصافحة والتقبيل للذمي ليس المراد به الاستدلال الأولوي في حق الحربي فحسب؛ بل بيان أن القول بأن ترك المجالسة للحوار العام مع الحربيين من باب البراءة =قول علمي، سواء أقرَّه المخالف أم لم يقرَّه؛ لأن الأئمة الذين منعوا من الأفعال سابقة الذكر -مما هو أقل من تلك التصرفات مع الحربي قطعًا- لا معنى لمنعهم منها إلا باب البراءة؛ إذ هو مناط العلاقات بين المسلمين والكفار.

(3)
وضع النصارى في مصر وهل لهم ذمة ، وعلاقته بالمسألة

* قال بعض المتكلمين في المسألة: "وأما إقحام قضية المحارب فهو كلام لا طائل من ورائه؛ إذ لا يخفي أنه لا يوجد عقد ذمة الآن في الأغلب الأعم؛ فالتوصيف المذكور لا ينطبق على واحد فقط كما يظن البعض (وهو أمر يحتاج مزيدًا من التوضيح ليس هذا مقامه)، مع العلم أن الذمي والمحارب لا يختلف حكمهما فيما ذكرنا، ومن أراد التفريق فعليه بالدليل".

-أقول: أولا: أما الكلام في عهد النصارى؛ فإن الأصل أن النصارى في بلاد مصر عمومًا في ذمة النبي صلى الله عليه وسلم بعهد عمرو بن العاص الأول، ولا خلاف أنه لا يشترط تجديد العهد لكل عصر، ما لم ينقض، على أنه لو لم يكن لهم عهد أصلًا في ذلك العصر أو من عصور قبله لكان لهم أمان، ولو لم يكن ذلك الأمان من أهله -كمفتئت أو كافر عندنا- لم يخرج عن كونه أمانًا فاسدًا، والأمان الفاسد ملزم، ولو لم يكن أمانًا أصلًا لكان شبهة أمان، وشبهة الأمان ملزمة.

وتلك أبواب كبيرة لا تتناول بهذا الكلام الرقيق، وإنما يقوم بها المحررون لهذا الشأن.



فنصارى مصر وغيرهم من نصارى بلاد المسلمين ما لم تقم منهم ممالأة على الطعن في دين المسلمين أو الرضا الصريح بفعل من يفعل ذلك منهم =إما ذميون، أو مستأمنون أمانًا صحيحًا، أو فاسدًا، أو بشبهة، وكل هذا مفضٍ لعصمتهم في الأموال والدماء من حيث العموم، إلا بحق الإسلام؛ بحدوده، أو بنقض العهد منهم.

ثانيًا: أن يقال إن تقصير من يحكم في إقامة عقد الذمة لا يعني تضييع أحكام الذميين؛ بل إقامة المقدور عليه من أحكام الذميين والمحاربين الثابتة بالنص الديني أولى من الاعتراف بالمعاهدات العلمانية، الثابتة بالاتفاقات العلمانية مع إسرائيل وأمريكا والتزامها.

ثالثًا: بل لو سلم لهذا المتكلم ما قاله جملة على التنزل، وأنه ليس للنصارى ذمة في مصر من الأصل وهذا فرض باطل اتفاقًا بيننا وبينه =فليس فيه أكثر من أنهم محاربون وقع بهم شيوع البلوى، وسقوط الحكم المترتب عليه -الحراب- للمشقة وعدم القدرة عليه، فلو كان كذا في الجملة =فما وجه عدم القدرة عليه في المعين الفرد الواحد؟ فإن المقرر أن الميسور لا يسقط بالمعسور! وما وجه عدم الإطاقة والقدرة في هجر الحربي الواحد إن لم يقدر على الجميع؟

فإن سقط المعسور كالقتل بعدم القدرة وعموم البلوى وقيام المفسدة؛ فكيف يسقط ما دونه من العقوبات المجتمعية؛ كالهجر والزجر والتثريب بالقول؟ فإن ذلك لازم للناس لا يسقط بتقصير من قصَّر في إقامة عقد الذمة مع النصارى؛ فإنها أحكام شرعية معروفة المأخذ من الكتاب والسنة والإجماع، والمحفوظ أن الأحكام الشرعية لا تنسخ بتقصير الناس، كما أننا نبيح القيام ببعض وظائف الإمام المجتمعية إن قصر فيها أو قعد عنها أو ضيعها غير المستحق لمنصب الإمامة.

رابعًا: أنه يلزم من هذا الكلام أن من سب النبي من النصارى يُسوى بينه وبين من لم يسب النبي منهم، بدعوى أنه ليس هناك عقد ذمة، وهذا فاسد قطعًا.

خامسًا: أما مطالبته بالتفريق بين من نقض عهد الذمة ومن لم ينقضه في ذلك الباب من الجلوس =فهو كغيره من الأحكام المختلفة بين الحربي والذمي.



فإن الفروق بين ناقض عهد الذمة ومن لم ينقضه في الأحكام = ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، وثابتة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنه قبل دعوة المعاهدين، وأكل من طعامهم، وواساهم، ولم يثبت عنه -ولا عن أحد من السلف- أنه جالس محاربًا ولا ناقضًا للعهد إلا لعرض الإسلام أو إقامة العقوبة، ومن كان معه دليل أن النبي جالس محاربًا أو ناقضًا للعهد أو عامله بمعاملة الذميين والمستأمنين =فليأت به؛ بل غياب المجالسة هاهنا بمنزلة الدليل القطعي؛ لقيام المقتضي لفعلها من أحرص الخلق على تألف قلوب الناس، وانتفاء المانع منها، وغياب قول واحد عن أئمة السلف يجيزها =يقوم مقام حكاية الإجماع الاستقرائية؛ فإن هذا لو كان قولًا فقهيًّا =لنقله المعتنون بنقل أقوال الناس في أحكام المحاربين وناقضي العهد، وهذا من مسالك نقل الأدلة والإجماعات عند أهل العلم، والأصل في هذا هو المنع والتحريم؛ إذ الأصل في المحاربين وناقضي العهد النهي عنهم وطلب عقوباتهم؛ فمبيحُ صورةٍ من المعاملة لا عقوبة فيها هو المطالَب بالبينة على حِلها.
والشاهد أن الفقه واعتراكه =أصعب مما يبتغي المؤمِّل.

(4)
ملحظان منهجيان تمس إليهما الحاجة في تلك المسألة ونظائرها

لابد أن أختم بملحظين ضروريين ، يتعلقان بتلك المسألة ، وما يناظرها من مسائل :

1 - ينبغي أن يُعلم أن هناك فرقًا بين كون القائل أو الفاعل مستندًا إلى اجتهاد، وكون ذلك الاجتهاد سائغًا؛ فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن الاجتهاد منه ما يسوغ ومنه ما لا يسوغ، ومتى كان الاجتهاد مخالفًا للنص أو الإجماع -كما في حالتنا في القعود مع الحربي لغير دعوته وإفحامه أو عقوبته- كان اجتهادًا غير سائغ، ككل اجتهاد مخالف للنص، كما في المسائل المشهورة عند أهل العلم.

كذلك ينبغي أن يعلم أن هناك فرقًا بين كون القائل أو الفاعل مستندًا إلى مصلحة، وكون تلك المصلحة معتبرة تصحح وصف اجتهاده بالسواغ؛ فإن العلماء متفقون على كون المصالح منها معتبر، ومنها مُلغى مُهدر، وكل مصلحة تعارض النص تخالف مقصوده -كما في حالتنا- فهي مهدرة ملغاة، لا ينفع الفقيه أن يستند إليها، وإلا لصح لكل أحد أن يستند في قوله لمصلحة متوهمة ملغاة.

فالحاصل أن الاجتهاد ليس قسيمًا للأحكام الشرعية؛ فليست المسائل تنقسم إلى اجتهادية وإلى أحكام شرعية؛ فهذا خلط، وإنما الأحكام الشرعية تثبت بأدلتها ويجتهد المجتهد في استخراج الحكم الشرعي من الأدلة، ويقع اجتهاده إما خطأ وإما صوابًا، والخطأ إما أن يكون خطأ سائغًا أو غير سائغ، وغير السائغ هو ما خالف النص القطعي أو إجماع السلف؛ فالاجتهاد يحكم عليه بالصواب والخطأ، والسواغ وعدم السواغ، ومجرد قول القائل: هذا اجتهادي أو اجتهاد فلان =لا يخلصه من التخطئة، والإنكار، إن كان هذا الاجتهاد غير سائغ، كما في محل الواقعة.

وهذا أجنبي عن الحكم بالتأثيم؛ فإنه راجع إلى علم المجتهد وآلته، وبذله وسعه أو تقصيره، ووجود الهوى من عدمه، وصحة حجته للاحتجاج من حيث النوع، فتلك أبواب أخرى.

2 - وأختم بتقرير أن وقوع التقصير في باب البراءة =لا يستلزم حصول الموالاة؛ فإن المقصر ببدء السلام معهم لا يلزم منه أنه والاهم؛ فهذا التقرير مهم ينبغي أن ينتبه إليه لئلا يحصل البغي في ذلك الباب من أحد على أحد، ويبين أن محل النزاع هو أن المجالسة على النحو المذكور تعد تقصيرًا في البراءة لا أنها تقتضي حصول الولاية؛ فإن غياب بعض آثار البغض الواجبة لا يلزم منه وقوع المحبة.

- نسأل الله عز وجل لنا ولإخواننا من الدعاة ولشيوخنا الفضلاء التوفيق والسداد في كل ما يأتون ويذرون، وأن يغفر ويرحم، وأن يُظهر دينه ويُعِزَّ عباده، إنه على كل شيء قدير.



مخطوطات بيتر

[من مذكرات مارك التي سربها الموت]

محمود توفيق حسين

رجع الشخص الحيوي الوحيد في هذا البيت لطبيعته، عاد مفعمًا بالحيوية والإقبال على الحياة والرغبة في التجريب واكتساب خبرات جديدة. هو الشخص الوحيد هنا الذي له أن يكتب مذكراته وليس أنا؛ لأن لديه ذكريات جديرة بالتوثيق. والعبرة ليست بتراكم النجاحات، وليست بالتحقيق، مطلقًا؛ الحقيقة أنه لا داعي لوجود عبرة من الأساس.

عاد أخي (بيتر) للحياة الحقيقية بعد انقطاع لأكثر من عام، رجع لما يمليه عليه قلبه، ليحيا حياة أخرى موازية للحياة العملية القائمة على المنطق والحسابات الدقيقة، حياة خارج الروتين والنظام. وإن كان قد دخل هذه المرة في حالة لا تتصف بالغرابة والتفرد كمعظم الحالات التي عاشها، كما أنها لا تخلو من الدقة التي في الحياة العملية رغم طبيعتها الفنية، فتحميض الصور ليس عملًا طائشًا؛ جهَّز معمل تحميض صور في غرفة فوق السطح، وانهمك في متابعة الحركة الفنية الفوتوغرافية، وأخذ يعدد أسماء الرواد في هذا المجال، وامتلأت حوائط غرفته بأعمال رائعة حقًّا، وارتدى (بيريه) أسود من الصوف كالذي يرتديه الأدباء؛ وهذا هو الشيء المثير حقًّا في الأمر: هذا التقمص الذي يمتد حتى يشمل تفاصيل الزي المناسبة للشخصية الجديدة. هذا الشاب الذكي الحيوي الذي اقترب من الثلاثين ولا زال لا ينظر خلفه ليلحظ أنه يبدِّل في الاهتمامات والهوايات منذ طفولته بدون أن يرسو على بر وبدون أن يحقق أي تراكم في أي شيء، آمنت الآن بصدقه مع نفسه، بعد أن آمنت بالقوة التدميرية للملل والقوة التدميرية لسيطرة فكرة (الجدوى). عائلتنا تخجل من أن تصرح بأنها تفعل شيئًا على سبيل (التسلية)، باستثناء أخي بيتر، الذي عادت له نفس الحيوية والحماسة التي عرفتها فيه في أدوار متعددة، كان يبدو مع كل منها أنه سيستمر معه للأبد : تصوف، تنويم مغناطيسي، تحضير أرواح ، مخابرات، بحث عن الكنوز، بحث عن الآثار، علم الفراسة، اللغات الشرقية القديمة، والبحث عن المخطوطات؛ حياة حافلة مثيرة تستحق أن يكتب ذكرياتها إذا تخلَّى عن حساسيته من الإخفاقات التي قابلته، وإذا تخلَّى عنه ضعف ذاكرته.

كله كوم ومرحلة الآثار والمخطوطات كوم وحدها، هي أكثر المراحل التي ساقني فيها خلفه، لأنها كانت تلبي حاجة ماسة في صدري غير الشغف بالاكتشاف. لا زلت أذكر بحثه المحموم المستمر بالساعات في المواقع والكتب والمراجع عن معلومات عن الخواجة (ميريت) تحديدًا، الذي كان له اهتمام بالمخطوطات القبطية ونسخ الأناجيل ثم انغمس بعد ذلك في علم المصريات، كان لدى بيتر حدس بأن (ميريت) باشا قد احتفظ ببعض المخطوطات القبطية في مصر بأحد البيوت القديمة بمنطقة (سقارة)، التي أشرف على فريق عمل للتنقيب عن الآثار فيها؛ وعندما صرَّح لي بهذا الحدس انسقت وراءه، وتمنيت أن يوفق في الوصول إلى شيء ما، ولا أعرف كيف اقتنعت!

كان الأمر مثيرًا حقًّا، فكرة التتبع العنيد لأقوال مختلطة ومتناقضة لأشخاص من مستويات اجتماعية وثقافية مختلفة، وشرب الشاي الثقيل في الحقول، والجلوس إلى خدام أضرحة غير مشهورة، والوقوف على بقايا بسيطة لبيوت ومعابد وكنائس نبتت فيها الحشائش وزحفت على ترابها الثعابين، وتصوير مواقع تربطها الذاكرة الشعبية والعرف بحياة أنبياء، ودخول مغارات عبر طرق وعرة وتسليط الكشاف الضوئي في الزوايا المعتمة بحثًا عن جرار فخارية، والوقوف على جنبات عتيقة مهجورة ليلًا لمساءلة الصمت والأرواح الهائمة، من أجل الوصول إلى شيء ما مختبئ ومستقر منذ قرون، ربما يقود لشيء خطير؛ شيء في قمة الإثارة. كنت فعلًا أستمتع بما يقوله عندما يعود وعلى بنطلونه من الخلف التراب، أستمتع بالطريقة الخاصة التي يعبر بها عن عالم الأسرار الخفية.

عشت من خلال بيتر حلمًا جميلًا، تتجدد حلقاته ومفاجآته، حتى دخلنا لحظة الذروة المدهشة، عندما بدا أن يد بيتر المتعبة مسكت أخيرًا بشيء حقيقي في هذا الضباب، فقد عاد ليلًا بوجه رائق، بوجه عليه فرح سماوي، يحاول أن يخفي خبرًا سعيدًا عني، لكنه في النهاية وتحت إلحاحي لم يستطع، أخبرني بعد ممانعة لطيفة، وبعد مكر وإنكار من النوع الفاشل، وبعد عتاب على كل مرة كنت أشكك فيها في كل باب يطرقه وأقلل من أهمية كل حكاية يسمعها، وبعد تأنيب على التشاؤم الغريزي عندي وقلة الصبر، أخبرني وهو يشد على يديَّ، بأن هناك مفاجئة جبارة للمسيحية وللمسيحيين حول العالم، للمسيحية والمسيحيين حول العالم؟!

نعم، وربما لا تقل في أهميتها عن اعتناق قسطنطين للمسيحية، وربما لا تقل في وزنها عن مقررات المجامع، دارت بي الدنيا وأنا أسمع منه هذا الكلام، وبلعت ريقي وهو يقول إنه سعى للوصول لمخطوطات ميريت ولكنه لم ينجح للآن، غير أنه قد حدث له ما يحدث مع كل باحث عنيد: وجد شيئًا غير الذي كان يطلبه، إنها مكافأة العليّ للمكتشفين.



فهناك مغارة نائية، يبدو أن جماعة من المسيحيين لجأوا إليها هاربين من العذاب في عصر الاضطهاد، وأخذوا معهم جرة فخارية وضعوا بها أوراقًا مهمة، وقعت هذه الأوراق في يد رجل مسلم غريب الأطوار من أهل الخلوة، حملها معه من المغارة بعد أن اختلى فيها أربعين يومًا عاش فيها على الماء والخبز الناشف.

هذا الصوفي المسلم مات بعد فترة قليلة وهي بحوزته في بيته الفقير التي ضربت الرطوبة حوائطه الجيرية، كانت تحت فرشته على سريره المصنوع من جريد النخل، وقد باعت أخته العجوز هذه الأوراق لرجل مسيحي بسيط من زوار الشيخ المسلم (المتوحِّد)، باعتها بالقليل، وكانت قد أوشكت أن تضعها بين الزير وحامله من أجل أن تسنده. وهذا المسيحي بدوره باعها لمن يعرف قيمتها أكثر منه. وها هو بيتر على وشك أن يشتريها، ثلاث مخطوطات، الأولى هي مخطوطة تنتمي للقرن الأول الميلادي بها تصريح كامل على لسان المسيح بألوهيته وبعقيدة الثالوث، كما أقرَّت وقنَّنت بعد ذلك بالقرن الرابع الميلادي، والمخطوطتان الأخريان وجدتا معها في نفس الجرة ونفس الكهف، ولكنهما تسبقان زمنها، وبحاجة لصيانة ومعالجة، وبين سطورهما المتآكلة جدًّا كنبوءة غير مبهمة عن الثلاثة أقانيم، الآب والابن والروح القدس.

إذن أخذ الهاربون المغمورون إلى المغارة ما هو مطلوب بالضبط، قدَّموا أحسن هدية لأحفادهم في القرن الواحد والعشرين. لقد كان في قمة النشوة وهو يؤكد القيمة الدفاعية للمخطوطات، ويؤكد أنها قد تحول كثيرًا من أعداء الرب يسوع إلى خدام للكرازة المسيحية. وهذا حقيقي ولا يحتاج لتأكيده، لكن غلبني في البدء إحساس بعدم التصديق، حرصت على أن لا يبدو على ملامحي، ثم شعرت بشيء من الفرحة المخلوطة بالقلق والتوجس لضخامة الأمر وحجم تداعياته، فأخي الشاب الحماسي سيساهم في فتح مرحلة جديدة من المد المسيحي، والخبر الذي عنده قد يسبب في موت بعض القساوسة والآباء من الفرحة، وبخاصة من يتصدون للمناظرات والدفاع عن العقيدة.

شعرت بشيء كبير من الفخر به وهو لا خبرة له طويلة بالمخطوطات مهما وضعت في اعتباري انكبابه في الفترة الماضية على المواقع العربية والأجنبية المتخصصة وزيارته للمتاحف، بالفخر من كون الرب شاء أن يضع ذلك الكنز تحت يد هذا الشاب الذكي الحيوي الذي ينقصه التأني الذي يتصف به الكبار وتدبرهم للأمور، اختاره دون المتخصصين الذين يفنون أعمارهم بحثًا عن رقعة صغيرة هنا وهناك.

سلسلة عجيبة بدأت بمسيحيين مغمورين التجأوا لكهف، ثم شيخ صوفي من أهل الخلوة بعد عدة قرون، لامرأة عجوز ستسند بالمخطوطات زيرها، لمسيحي بسيط يعمل في صناعة الخوص، ومنه إلى تاجر فضيات مسيحي، وانتهت ببيتر . أنا تقريبًا نمت يومها وأنا لا أشعر أن جسدي على الفراش، بل محلقة، وكنت أشعر بالخجل من نفسي كوني شاكَّة، واستنتجت وأنا أراجع تلك السلسلة من التنقلات أن الرب يتحرَّك ليعلن نفسه، وهذه ليست خبرته الأولى في الانطلاق من مغارة!

ومرت أيام هادئة هانئة، كان كثيرًا ما يخط فيها على أوراقه بالعربية والإنجليزية بخط جميل (مخطوطات بيتر)، على ما يبدو أنه بدأ يحلم بتدوين اسمه في مراجع اللاهوت العالمية، وتأكدت من أن هذا ما يدور بذهنه عندما ذهب لأحد الرسامين ليرسم له تلك الصورة الزيتية التي يبدو فيها كأنه من العصور الوسطى.

وفي ليلة ملت عليه وهو منكب باطمئنان على مرجع ضخم يتحدث في مقارنة المخطوطات، وقد كنت أظن أنه سيملُّ من ذلك بعد أن أوشك على أن يمتلك ما لم يمتلكه غيره، وسألته عن بعض التفاصيل، فلم يجبني بما يشبع الفضول، فظننت أنه اختار التحفظ حتى يملك كنزه في يده، فضغطت عليه أكثر، وسألته إن كان قد زار تلك المغارة التي وُجدت فيها المخطوطات وخصوصًا أنه مولع بدخول المغارات؟ فابتسم ونفى وتكلم قليلًا بتلقائية، فانتفضت شكوكي مرة ثانية، فقد بدا لي على غير طباعه التي لن تسمح له بالصبر حتى على رؤية المغارة. شعرت أنه تم ترويضه وتعويده على الصبر والاكتفاء بالقليل من المعلومات. سألته عن تفاصيل، ولم يكن عنده تفاصيل، باستثناء السعر المطلوب، وأن لغة مخطوطة المسيح أرامية وأن الأخريين عبريتان، وأنه شاهد صورًا فوتوغرافية للمخطوطات، وألححت عليه ليدلني كيف عرف أنها مخطوطات غير مزورة، فقال إنه متأكد من أنها غير مزورة، لأنه غير ساذج حتى يشتري مخطوطات مزورة، بدون أن يوضح لي بشكل علمي يليق برجل منكب على مرجع تلك الأسباب التي تجعله متأكدًا، وألححت عليه لمعرفة إذا ما كان قد وصل للمخطوطات عن طريق أشخاص موثوق بهم، سألته عن الحلقة التي لم يذكرها بين المسيحي بائع الفضيات وبينه، فبدا عليه أنه يكره الإجابة على هذا السؤال وتألم منه، كأني دست على قدمه، فأجابني بعد أن اتهمني بالوسوسة والتشاؤم والشك في كل شيء، أجاب الإجابة التي نزلت بمعنوياتي للحضيض، فالشخص الموثوق به الذي يتوسط في الصفقة بين بيتر وتاجر الفضيات هو (إدوارد).

أول ما نطق بالاسم شعرت بهزيمة وخيبة أمل؛ فهذا الشيء الضخم العبقري الذي سيغير مجرى التاريخ الديني انحشر به إدوارد أكثر أصدقاء أخي تفاهة، الحالم السطحي الذي يريد أن يصعد بسرعة الصاروخ، إدوارد الذي تخبَّط كثيرًا في حكايات متتالية عن مشاريع وصفقات وكاد من قبل أن يعطي رقم حسابه لأرملة الحاكم الأفريقي الوهمية لتحوِّل عليه ملايين الدولارات.

وقع بيتر إذن ضحية صاحبه الأفاق الذي يجمع بين حسن المظهر والتغفيل، ولا أعرف سر إيمان أخي بهذا الإنسان المستفز وبإمكانياته.

من ساعتها رجحت في الأمر أنه أكذوبة، وكنت أتمنى أن يثبت العكس. وعشت موزعة بين حذري وحلمي، شجعته على الاستمرار ولكن بحذر، استطعت أن أشوش على تفاؤله، نبَّهت عليه ألَّا يدفع المبلغ المطلوب قبل أن يستلم المخطوطات ويتأكد من أصالتها، ولا يدفع أي عربون يطلبونه لربط الكلام، وبالفعل عاش بعد ما سمعه من الغرائب كالمغارة وشيخ الخلوة في أجواء أخرى، أجواء المدينة الحديثة والتفاوض.

وبالفعل رفض تحت تأثيري أن يدفع المبلغ المطلوب قبل الاستلام والفحص، ثم رفض أن يدفع العربون، وغرم ثمن الطعام بمطاعم كباب ومطاعم وجبات سريعة، ومشروبات على المقاهي، وشيشة تفاح هنا، وعندك واحد زبادي في الخلَّاط للباشا؛ وقضى أمسية أخيرة مع إدوارد ورجل المخطوطات أو تاجر الفضيَّات أو (مستر إكس) كما أفضل أن أسميه، وهما يحاولان فيها إقناعه بدفع ربع القيمة مقابل حصوله على المخطوطات، على أن يدفع الباقي بعد فحصه لها لدى أي جهة موثوقة، ورفض بناءً على (زنِّي) على أذنيه وكان يتمنى ألَّا يرفض.



وعاد وهو يسعل من تدخين الشيشة التي تعلمها منهما، عاد عصبيًّا يتهمني بتشكيكه في الرجلين، وأنني سأكون سببًا في ضياع هذا الكنز عليه وعلى كنيستنا، لأنهما صرَّحا له وهو يودعهما بعد أن دفع حساب المشروبات كالعادة، بأن خبيرًا ألمانيًّا تواصل معهما عبر الإنترنت، وسيأتي قريبًا جدًّا للمعاينة والمفاوضة على الشراء، وهو على استعداد لدفع نصف الثمن كعربون وليس الربع، وسألني من باب التبكيت: ماذا لو عرف ثري مسلم أو يهودي بخبر المخطوطات فاشتراها وحرقها؟ وماذا سنقول للرب وقتها؟

وبدأ يتسرب إليَّ الإحساس بالذنب والظن بأنني ربما وقعت فريسة لمكر الشيطان وهو الذي قادني لهذا التصلُّب، ووقفت صامتة وهو يكلمني عن رب المجد، ورائحته كلها دخان شيشة، ونمت وأنا متكدرة نوعًا ما، وأشعر بشيء من الحقد الصحي على الخبير الألماني، لكني عرفت منه قبل ظهر اليوم التالي خبرًا كالصاعقة، أسوأ كثيرًا من أن يصلنا خبر إتمام الصفقة مع الخبير الألماني، ولو دخن بيتر بعض أحجار الشيشة الإضافية بالأمس لعرف الأخبار طازجة، ببث مباشر من موقع الحدث، فقد تم القبض على إدوارد والرجل الآخر (مستر إكس) ورميا بسيارة الشرطة؛ ليس بسبب حيازة المخطوطات، ولا بسبب تهديد الوحدة الوطنية، ولكن لأن (مستر إكس) الغامض أعجب منذ فترة بحيوية إدوارد وتفانيه وطاعته العمياء، واستعان به للعمل معًا في تأشيرات حج مزورة! إدوارد وتأشيرات حج مزورة!

المضحك أن مستر إكس هذا الذي يدّعي امتلاكه للمخطوطات العظيمة، أي من ساعده إدوارد في موضوع تأشيرات الحج، اتضح أنه شخص مسلم على عكس ما تم إظهاره لأخي، حيث حلف أمام أخي بالمسيح الحي وحلف بالعذراء من أجل أن يسبك الدور.

لقد أقنع هذا الرجل إدوارد بأن أخي لن يقتنع بشراء المخطوطات إن عرف أنه مسلم، وهو رجل منطقي جدًّا في هذا الكلام، ولكن ما حيَّرني هو كيف اقتنع إدوارد بأن مسلمًا ما حتى لو كان لا يركعها -على قول المسلمين- سيثبت التثليث وسيظل على إسلامه؟ هذا غباء غير عادي، طول وعرض ووسامة ولسان، على مخ طفل؛ كدت أموت ضحكًا لهذه المفارقة، فالحاج أحمد كما أسماه أصحاب الشكاوى هو إدوارد، إدوارد المسيحي يسمسر في تأشيرات حج للمسلمين، وفاروق المسلم يبيع مخطوطة عن الثالوث، الوحدة الوطنية بخير!

ثبت أن إدوارد لا علم له بمسألة التزوير، مجرد مساعد يتحرك بناءً على التعليمات ويقابل الزبائن، ونفعه كونه مسيحيًّا، حيث اعتبر رجال التحقيق موضوعه طرفة. وقد وقف بيتر مع إدوارد ودفع له مبلغ الكفالة. ولقد أشفقت على بيتر وهو ينزل على سلم النيابة ومعه إدوارد الذي بان عليه الاكتئاب ونبت شعر لحيته، فرغم كل ما حدث إلَّا أن أخي سأله بصوت خجول عن المخطوطات، فما زاد إدوارد عن كلمتين بصوت بليد مرهق: فاروق كما ترى: نصَّاب. كنت بجانبه، وقد وجع قلبي سؤال أخي، ووجعت قلبي غمضة عينه اللاإرادية عندما سمع الكلمتين. ولفترة ما امتنع إدوارد عن زيارتنا أو حتى التصفير له من الشارع، ولفترة ما امتنع أخي عن النظر في عيني، وذلك بعد أن قال ما على المسيحي الجيد أن يقوله في موقف صعب كهذا: (المسيحية ليست بحاجة إلى هذه المخطوطات).

الرب لم يتحرك إذن ليعلن نفسه منطلقًا من مغارة؛ شيء مؤسف. مرَّ الأمر عليَّ مرور الهزيمة الثقيلة، فأخي لم يكن يتحرَّق لشراء شيء له قيمة تاريخية، إنما كان يشتري دليلًا، دليلًا شبَّه قيمته باعتناق قسطنطين للمسيحية. أفهم جيدًا أن يشتري مسلم مخطوطة تنتمي لعهد محمد بها سورة (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) بمبلغ باهظ، لكنه لن يشتري دليلًا نصيًّا على وحدانية الله، ولن يفتش عنه طالما أن توحيد الله ساطع بالقرآن، أما نحن ففتشنا بلهفة في مخطوطات (قمران)، ثم عدنا وقلنا إنها لا تحتوي على قنبلة لاهوتية، وكنا نقصد تحديدًا عدم وجود دليل واضح بها على الثالوث الإلهي؛ فلماذا لا يهتم مسلم بمسح الأرض في سبيل اقتناء مخطوطة من القرن الهجري الأول تصرِّح بالتوحيد، بينما أنا كمسيحية على استعداد لأن تُمسَح بي الأرض في سبيل اقتناء مخطوطة من القرن الميلادي الأول تصرِّح بالتثليث؟

الإجابة الوحيدة المقنعة -والذليلة- هي أننا لا نمتلك الدليل النصي القديم والقطعي عن الثالوث والأقانيم الذي يغنينا عن الأدلة النصية الأحدث والأقل قطعية، لا شيء مثل مخطوطات بيتر التي كانت حقًّا جليلة وجسورة وكافية، ولا وجود لها.

(هذا المقال جزء من عمل موسع سيتم إصداره بإذن الله)



كلانا على خير وبـر

محمد عبد الواحد (الأزهري الحنبلي)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد: فإن سبل الخير الموصلة إلى الله تعالى كثيرة، وقد أمرنا ربنا أن نستبق الخيرات، ونتنافس في الفضائل، ونسارع إلى مغفرة ربنا وجنته، وقضى الله تعالى أن تتنوع الطرق الموصلة إليه المتفرعة عن أصل واحد وهو توحيده واتباع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وخلق عباده موزَّعة مواهبهم متنوعة ميولهم مختلفة رغباتهم، وجعل الواجبات نوعين:

عينية: يُنظر فيها إلى المكلف بعينه، فلابد له أن يقوم بها غير مجتزِئ بفعل غيره.

وكفائية: يُنظر فيها إلى الفعل وحصوله مجردًا عن الفاعل، وإن كان من قام بها بعد حصول الكفاية مثابًا.

وفروض الكفايات متنوعة إلى أنواع كثيرة؛ من الجهاد، والعلم؛ تعلمه وتعليمه بشتى فروعه، والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجملة، وكفاية الأمة فيما تحتاجه في السياسة والاقتصاد والإعلام والاجتماع والعلوم الإنسانية والدنيوية التجريبية والصناعات والحرف، وما أشبه ذلك.

والمطلوب من المكلفين أن يتوزعوا على هذه الأنحاء قائمين بما يقدرون عليه من ذلك، متكاملين فيما بينهم لتكون الصورة الجمعية لعموم الأمة كاملة قائمة بأمر الله كله.

وإن من المؤسف ذلك الجدال القائم على الساحة بين الفصائل العاملة لهذا الدين من التيارات الإسلامية حول تنوع أعمال البر وسبل الخير وما الذي ينبغي سلوكه ويفضل غيره، في بحث مطلق غير منظور فيه كثيرًا إلى ما يتعلق بالأفراد، ولا إلى التنوع المقصود كونًا وشرعًا، ويحشد كل فريق الأدلة والمؤيدات على أن طريقه هو الذي ينبغي أن يقدم سلوكه، وأن الطرق الأخرى كلها تأتي بعده مفضولة إن أتت أصلًا!

والحق أن هذه الميادين كلها مطلوبة، والأمة بحاجة إلى من يبذل جهده فيها، وهذا الجدال لن يكون من ورائه إلا الشحناء وتضييع شريف الأعمار وإهدار طاقات الأمة فيما لا طائل من ورائه، ثم لن يحيط المرء وحده ولا طائفته بكل ما أُمر الناس به، فلا يكلفن نفسه ذلك، ولا يطالبن الناس به، بل من الخطأ ومناقضة الواقع أن يؤمر كل واحد أن يحيط بكل أبواب الخير؛ إذ المطلوب حقيقة من جميع العباد إنما هو أن يسخر المرء وقته وجهده لخدمة دين الله سبحانه وتعالى والدعوة إليه، وأبوابُ الدعوة ومجالات خدمة الدين واسعة متنوعة، ومن سلك طريقًا ينصر به الإسلام وأحسنه فإنه لا يطالب بغيره مما لا يحسنه، ولا يُذم على عدم سلوكه، وإنما يثنَى عليه بما قام به ويعان عليه ويستفاد منه في ميدانه، ثم يحصل التكامل على مستوى الأمة، فقد يشتغل فرد بسد ثغر من الثغور حسب طاقته ومواهبه، ولكن على مستوى الأمة يجب أن تسد الثغور جميعًا.



ولابد أن يُعلم أن عمل كل شخص في مجاله الذي يحسنه هو الأوفق والأصلح، وأن من الخطأ أن يتكلف ما لا يحسن ويدع ما يحسن، فلا يطالَب عالم شرعي تراثي بالتحدث عن قضايا فكرية حديثة لم يقرأ عنها ولم يشتغل بها، بل قد تحتاج هذه إلى شخص آخر أفهم لها وأقوم بها، والعكس كذلك؛ فلا يطالب مفكر أو مثقف غير راسخ القدم في العلم والتراث بأن يفتي ويحرر مسائل الفقه، بل ليس له أن يُدخل نفسه في هذا الباب بلا مُكنة وآلة!

نعم؛ لابد من التنبه إلى أنه قد يُتذرع بالتخصص إلى ترك بعض الواجبات المقدور عليها، فيُرجِع بعضُ الناس تقصيره في بعض الواجبات عليه إلى التخصص؛ كأن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة عليهما بحجة التفرغ للعلم! ونحو ذلك، وهذا مما لا يسوغ بحال، والواجبات العينية وكذا الكفائية التي لم تُكفَ الأمة فيها لا يجوز أن تترك بحجة التخصص، كما أن ثمة أمورًا واجبة على الجميع؛ فالعلم الشرعي مثلًا فيه قدر واجب على الجميع، وقدر هو فرض كفاية.

والمقصود: أن من توجه إلى طلب العلم مثلًا وأنفق فيه النفيس من وقته، لايسوغ له التفريط في عبادة الله تعالى، أو أن لا يتمعر وجهه إذا رأى معصيته؛ بل ينبغي عليه أن يتربى على عبادة الله تعالى وطاعته، وعلى إنكار المنكر والأمر بالمعروف، وجلب النفع للناس، وغير ذلك من أبواب الخير، ثم يكون تحصيل العلم هو الغالب على أحواله يصرف له جل همته، مع العناية اللائقة بالجوانب الأخرى.



كما أن من الخلل التربوي غير السائغ أن يكون عند المرء نقص فادح ويعاني من فقر في مختلف الجوانب ويحتج لنفسه بأنه متخصص! وإنما الذي ينبغي أن يكون فيه قدر من التكامل، ويأخذ علما من كل علم، ثم يتخصص ويأخذ من علمٍ كلَّ علم. وحينما يحصل خلل واضح في جانب من الجوانب فإنه يعود على الجوانب الأخرى بالنقص أو الإبطال.

فعندما يكون طالب العلم قاسي القلب، فإنه سيفقد الورع الذي يحتاج إليه في علمه وفي فتواه ومواقفه، وكذلك المربي أو الداعية حين يكون ضحلًا في العلم والاطلاع، لابد أن ينعكس هذا الخلل على عمله وجهده ودعوته، وقد يفسد أكثر مما يصلح، فلابد إذن من التكامل بقدر الإمكان مع التخصص، وأن تكون شخصية الإنسان متوازنة.

وينبغي الحذر كذلك من الإغراق المبكر في التخصص، فالشباب الصغير قد تكون توجهاتهم واستعداداتهم متقاربة، وكلما تقدمت بهم السن تبدأ تتضح معالم شخصيتهم، والتخصص المبكر يوقع في أخطاء؛ منها: الخلل في الشخصية؛ إذ لو بدأ من الصغر في التخصص واستغرق فيه قبل التنوع؛ فستنقص شخصيته بقدر ما أهمل من الجوانب الأخرى التي كان يمكنه معرفتها والقيام بها، وبالتالي فلن تكون شخصيته متكاملة.

وكذلك فقد يتصور أنه إنما يصلح لهذا الميدان بينما هو يصلح لغيره ونفعه فيه أكبر، وقد يصلح لهما معًا، فيقع الخلل في تقويم الشخصية واستكشاف استعدادت الشخص ومواهبه، ولكن عندما يتأنى في جانب التخصص مع تحصيل أساسيات كل خير؛ فإنه يمكن تجاوز تلك السلبيات.

كما أنه لا ينبغي الرضا بالدون ؛ فقد يصلح بعض الناس لميادين كثيرة فينبغي أن يجمع بينها، ويختار عند التعارض الأولى والأليق به، من خلال ما يصلح له في نفسه، أو من خلال حاجة المجتمع وحاجة الدعوة إلى هذا الميدان، أو من خلال أهمية هذا الميدان من حيث هو، ونحو ذلك من المرجحات، فلا ينبغي أن ينشغِل بالمفضول بحجة أنه قد أفلح فيه ويدع غيره مما يمكنه فعله؛ بل هذا إهمال وإهدار للطاقات.

وقديمًا قال أبو الطيب:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا *** كنقص القادرين على التمام

وهكذا في تربية الأطفال والناشئة؛ فإنهم تختلف مواهبهم وتوجهاتهم، والموفَّق من ينشِّئ ولده على طاعة الله وحب دينه والسعي في خدمته ونصرته أيًّا كان موقعه، ولا يقتصر ذلك على طلب العلم الشرعي أو صورة معينة من الصور غيره. وإلا فمن حمل ولده على غير ما يصلح له؛ فقد ظلمه بأن حمّله ما لا يطيق، وضيع عليه موهبته، وحرم الأمة من الاستفادة منه فيما يحسن القيام به.

فمِن أُسس التربية الصحيحة أن لايسارَ بالمرء إلى غير مايحسن، إذ كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، وبعض الناس قد يكون عنده حماس وطاقة وهو متفرغ وقادر على العمل، لكن إدراكه العقلي محدود وحافظته محدودة، وهو غير مؤهل لتعلم العلم الشرعي، فلا يصلح أن يطلب منه التدريس في حلقة علمية مثلًا، بل قد يكون الأنسب له والأنفع للأمة أن يساهم في إنكار المنكرات، أو المشاركة في الأعمال الإغاثية والاجتماعية، أو غيرها مما يصلح لحاله وينجح فيه ويثمر.

ولا يسوغ أن يُطلب من إنسان سريع الغضب لا يجيد التعامل مع الآخرين أن يعمل في ميدان تربوي، لأن الميدان التربوي يحتاج إلى إنسان حسن المعاملة طويل النَّفَس.. وهكذا.



قال الإمام العلامة المربي ابن القيم رحمه الله:

"ومما ينبغي أن يتعهد: حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذونًا فيه شرعًا؛ فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه وفاته ما هو مهيأ له، فإذا رآه حسن الفهم صحيح الإدراك جيد الحفظ واعيًا؛ فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم لينقشه في لوح قلبه ما دام خاليًا فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه. وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح وأنه لا نفاذ له في العلم ولم يخلق له؛ مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها؛ فإنه أنفع له وللمسلمين. وإن رآه بخلاف ذلك وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع مستعدًا لها قابلًا لها وهي صناعة مباحة نافعة للناس؛ فليمكنه منها. هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه؛ فإن ذلك ميسر على كل أحد؛ لتقوم حجة الله على العبد فإن له على عباده الحجة البالغة كما له عليهم النعمة السابغة".

إن الأمة بحاجة إلى توجيه المواهب فيما تحسنه وتوظيفها فيما يعود بالنفع الأتم على صاحبها وعلى أمته، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل، ألا ترى أن زيد بن ثابت وكان فتى موهوبًا نابغًا قد أعجب النبي صلى الله عليه وسلم بموهبته فأمره أن يتعلم السريانية، فتعلمها وحذقها في بضعة عشر يومًا.

أليس في نحو هذا قد يقول بعض الناس: إن هذا مضيعة للوقت؟! وإن هذا الوقت الذي أقضيه في تعلم تلك اللغة الأولى بي قضاؤه في قراءة القرآن، أو حفظ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونحو ذلك، ويغفل عن أن هذا باب خير لابد أن يطرق، وثغر لابد أن يسد في هذه الأمة.

ولا شك أن زيدًا لم يقدم تعلم اللغة على مهمات الشرع ولا أُمر بذلك، لكن النبي صلى الله عليه وسلم علمنا درسًا في هذه القضية، حاصله: أن كل ميدان من ميادين الخير لابد أن يكون في الأمة من يتولاه ممن يصلح له، نعم؛ ربما يكون مفضولًا من حيث الأصل، لكنه بالنسبة لهذا لشخص المعين يكون أفضل من غيره.

ومن المهم هنا أن يتنبه إلى أن مسألة تفاضل الأعمال وما يقال فيها بل وما دلت عليه الأدلة فيها؛ إنما هي في الجملة من حيث العموم والإطلاق، أما من حيث الشخص المعين أو الزمان المعين أو المكان المعين فقد يصير المفضول أفضل.



فقراءة القرآن مثلًا هي أفضل من الذكر والدعاء من حيث النظر المجرد، لكن في بعض المقامات والأحوال والأوقات يكون الذكر والدعاء أفضل؛ كيوم عرفة للحاج، بل قد ينهى في بعض الأحوال عن القراءة ويؤمر بالذكر والدعاء، كما نهينا عن القراءة في الركوع والسجود، وأمرنا فيهما بتعظيم الرب جل جلاله، والاجتهاد في الدعاء.

وتطبيقات هذه القاعدة كثيرة؛ فالقراءة عن الطوائف المنحرفة كالقاديانية والبهائية والعلمانية والليبرالية والحداثة وما بعدها، وغير ذلك من الطوائف والنحل، ومعرفة كل ما يتعلق بها؛ ليست بأفضل من القراءة في القرآن وتفسيره، ودواوين السنة وشروحها، هذا من حيث الأصل، لكن الأمة محتاجة إلى هذا، فهذا المفضول لو أتاه امرؤ وتخصص فيه وأحسن القيام به فقد يصير في حقه فاضلًا.

وقُل مثل هذا فيمن تخصَّص في الأدب فتفرغ له حفظًا وقراءة ونقدًا ومدارسة لكتبه ومدارسه؛ واعيًا أن جزءًا من معركتنا ميدانها الأدب، فهبَّ ليسد هذا الثغر منازلة للأدب المنحرف. وهكذا في شتى المجالات.

ومصداق ذلك هديُ النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان إذا خرج إلى الجهاد يخلف بعض أصحابه أميرًا على المدينة؛ كما خلَّف علي بن أبي طالب رضي الله عنه في أهله في غزوة تبوك. فالجهاد بلا ريب أفضل من القعود عنه، لكن كان الأفضل في حق علي رضي الله عنه هنا هو القعود.

ومتى عُلم أن الثغور كثيرة وأنه لابد من سدها جميعًا بالكفاءات، وأن تنوعَ المواهب والميول أمر إيجابي يجب أن يوظف توظيفًا صحيحًا، وإنكاره أو عدم مراعاته ضرب من ضيق العطن والمكابرة، عُلم أن هذا التنوع مصلحة للأمة ومحقق لهيئتها الجمعية المتكاملة، فيُفرح به ولا يُذم ولا يُطلب زوالُه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل شخص إنما يستحب له من الأعمال التي يتقرب بها إلى الله تعالى التي يقول الله فيها: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) ما يقدر عليه ويفعله وينتفع به، والأفضل له من الأعمال ما كان أنفع له، وهذا يتنوع تنوعًا عظيمًا، فأكثر الخلق يكون المستحب لهم ما ليس هو الأفضل مطلقًا ؛ إذ أكثرهم لا يقدرون على الأفضل، ولا يصبرون عليه إذا قدروا عليه، وقد لا ينتفعون به، بل قد يتضررون إذا طلبوه؛ مثل من لا يمكنه فهم العلم الدقيق إذا طلب ذلك فإنه قد يفسد عقله ودينه، أو من لا يمكنه الصبر على مرارة الفقر ولا يمكنه الصبر على حلاوة الغنى، أو لا يقدر على دفع فتنة الولاية عن نفسه والصبر على حقوقها..

ولهذا إذا قلنا: هذا العمل أفضل؛ فهذا قول مطلق، ثم المفضول يكون أفضل في مكانه، ويكون أفضل لمن لا يصلح له الأفضل.

مثال ذلك: أن قراءة القرآن أفضل من الذكر بالنص والإجماع والاعتبار... وكذلك كثير من العباد قد ينتفع بالذكر في الابتداء ما لا ينتفع بالقراءة؛ إذ الذكر يعطيه إيمانًا والقرآن يعطيه العلم وقد لا يفهمه ويكون إلى الإيمان أحوج منه؛ لكونه في الابتداء، والقرآن مع الفهم لأهل الإيمان أفضل بالاتفاق".

فالأمر المهم والحكمة هي توجيه عموم المسلمين للعمل لدينهم أيًّا كانت مواقعهم، وزرع هذا الشعور فيهم، وحينئذ فستختلف-لامحالة- أساليب العاملين وتوجهاتهم، وتتنوع طرقهم في إحياء الأمة وإيقاظها وتغيير حالها؛ فمنهم من يرى أن الجهل قد تفشى في الأمة، وأن إحياءها بإزالة غشاوة الجهل عنها، فيُعنى بالعلم تحصيلًا وتأصيلًا وتعلمًا وتعليمًا ودعوةً إليه.

ومنهم من يرى أن هذه الأمة إنما كانت خير أمة أخرجت للناس لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فراح يبذل وقته وجهده في إنكار المنكرات الظاهرة العامة والخاصة، فاستغرق عليه ذلك وقته وجهده، ورأى أن هذا هو الطريق الذي ينبغي أن يسلك لإنقاذ الأمة، وأنه بمثل هذا العمل يدفع الله العذاب عن الناس، وبتركه يفشو الخبث ويحل الهلاك.

وثالث قد تألم لحال من استهواهم الشيطان؛ فوقعوا في الانحراف والرذيلة، فسخَّر وقته وجهده لدعوة هؤلاء وإنقاذهم، وليس هو فقيهًا ولا عالمًا، لكنه يدعو بما عنده من علم.

ورابع قد رق قلبه للأكباد الجائعة والبطون الخاوية؛ فصار ينفق من نفيس ماله، ويجمع الأموال من أهل الخير فينفقها في وجوه البر من أرامل وفقراء ومساكين وغيرهم.

وخامس رأى أن هذه الأمة أمة جهاد، وأنه لا سبيل إلى رفع الذل عنها إلا برفع رايته، فحمل روحه على كفه، وامتطى صهوة جواده، فهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه". خرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه. فيومًا تراه في المشرق، ويومًا تراه في المغرب، وما بين هنا وهناك، يسعى للجهاد في سبيل الله، لا يطرب أذنه ولا يشنفها إلا أزيز الرصاص وصوت السلاح.

وسادس رأى أن هذا الدين نزل للناس جميعًا؛ فوجه جهده لدعوة غير المسلمين، وإظهار محاسن الدين، ومناظرة المغرضين من الغربيين والمستشرقين ودعاة الشرك والإلحاد والعلمنة وأخواتها المفسدين، أو سخر قلمه لخوض المعارك الفكرية دفاعًا عن الإسلام ومصاولة لأعدائه والمتحدثين زورًا باسمه؛ فصار يتحدث عن مشكلات الأمة وعن قضاياها، قد لزم هذا الثغر يخدم به دين الله ويواجه به الأعداء.

وسابع رأى أن عدة الأمة وأملها الأمة في شبابها وجيلها الناشئ؛ فسخر وقته لتربية الشباب وإعدادهم، وتنشئتهم على طاعة الله سبحانه وتعالى، ورأى أن هذا الطريق هو الذي يخرج العاملين والمجاهدين وينقذ الأمة.

وثامن رأى أن العصر عصر تقنية وتقدم حضاري مذهل، وأن الأمة متأخرة في هذا الباب كثيرًا بعد أن كانت شمسها ساطعة على الغرب المظلم وقت أن كانت متمسكة بدينها وهويتها؛ فراح يتعلم من صور التكنولوجيا والتقنيات المعاصرة ما يغني به الأمة عن الحاجة إلى أعدائها ويعد لها به القوة المستطاعة، ومجالات هذا الباب من أبواب الخير إن صلحت فيها النية لا تحصر؛ من علوم الطب والهندسة بأنواعهما، والفلك، وعلوم الطبيعة، والبيولوجيا، وما يتعلق بتكنولوجيا المعلومات بفروعها وتخصصاتها.

وتاسع تيقن أن التقدم في زماننا إنما يحوزه من فاق في مجال الإعلام، وأن الإعلام العالمي وتابِعه المحلي موجَّهان لحرب الدين وإشاعة الفواحش والشهوات والشبهات، فصرف جهده في نشر الدين عبر الإعلام بشتى صوره المقروء والمسموع والمرئي.

وهكذا ترى أبوابًا من الخير وألوانًا من نصرة الدين والدعوة إليه، وهي أبواب واسعة شتى تَسَع الجميع على اختلاف طاقاتهم وعقولهم وعلومهم ومداركهم وأفكارهم.

فهل نضيق ذرعًا بهذا التنوع في وسائل الإحياء والتغيير؟ وهل هذا الاختلاف اختلاف تنوع أو تضاد؟ وهل هو مدعاة للتكامل أم للتآكل؟ وهل يلزمنا أن نبحث عن طريق واحد نسلكه في سبيل إنقاذ الأمة ونُلزم به الناس بزعم أن الحق لا يتعدد وأن صراط الله المستقيم إنما هو واحد لا يختلف؟ وهل لا يُخدم الدين إلا بطريقة واحدة فقط سواء كانت هي العلم أو الجهاد أو الدعوة أو غير ذلك؟

وهل يسوغ لمن قام بواجب من هذه الواجبات أن يحقر جهود إخوانه؟

تأمل معي -رعاك الله- طريقة القرآن والسنة وما كان عليه خير القرون عبر هذه الأمثلة لتعرف الجواب.

يقول الله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: 122].

ففي هذه الآية أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يخرجوا جميعًا إلى الجهاد؛ بل لابد أن ينفر من كل طائفة فئة، ويتفقه قوم في الدين، ثم ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم. فهذه الطائفة لن تنفر للجهاد في سبيل الله، وإنما ستتفرغ لتحصيل العلم الذي تتفقه فيه ثم تنذر قومها، فليس كل الأمة إذن سيتفقه، ولا كل المسلمين سيجاهدون، بل ولا يُطلب منهم ذلك واحدا واحدا، وإنما ستتوزع الجهود ويقوم كل بما يقدر عليه مما ينفع المسلمين.

ونحو هذا قول الله تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43]

وفي هذا إشارة واضحة إلى أن الناس من حيث العموم قسمان: أهل ذكر، وغيرهم، فليس كل الناس علماء، ولا يطلب منهم أن يكونوا كذلك. وهذا يعم جميع المجالات.

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وفيها -كما قال الشيخ السعدي- "دليل وإرشاد وتنبيهٌ لطيفٌ لفائدةٍ مهمةٍ؛ وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يُعِدُّوا لكل مصلحةٍ من مصالحهم العامة من يقوم بها ويوفر وقته عليها ويجتهد فيها ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة والقصد واحد، وهذه من الحكمة النافعة في جميع الأمور".

وفي السنة من ذلك الشيء الكثير: يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خير، فإن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، وإن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، وإن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة". فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على من دعي من هذه الأبواب أو من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: "نعم، وأرجو أن تكون منهم". متفق عليه.

فلينظر امرؤ ما فُتح له وبورك له فيه فليلزمه ولينافس فيه، وكل ميسر لما خلق له.

والله سبحانه وتعالى يقول:﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: 32]، فهذا التنوع سنة كونية لا يطلب من المرء شرعًا أن يخالفها، بل لا سبيل إلى مخالفتها، وبها تقوم مصالح الناس وتنتظم أمورهم.

ومن أجل مراعاة هذا التنوع في مواهب الناس واحتياجاتهم تنوعت الوصايا النبوية بحسب حال السائلين والمستفتين؛ فتارة يقول لأحدهم: "لا تغضب"، ومهما كرر عليه الاستيصاء فالجواب لا يتغير. ويوصي غيره بأن يقول: آمنت بالله، ثم يستقيم، ويوصي ثالثًا بكثرة السجود. وهكذا، فوصايا النبي صلى الله عليه وسلم كانت تختلف من شخص إلى آخر، بل أحيانًا يُسأل صلوات الله وسلامه عليه نفس السؤال من عدة أشخاص فيختلف الجواب. كما سُئل: أي العمل أفضل؟ أو: أي الإسلام خير؟ أو: عن أحب الأعمال إلى الله تعالى؟
فيجيب هذا بإجابة، وذاك بإجابة أخرى، وما ذاك إلا لأن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف أن كلًّا منهم إنما تنفعه هذه الوصية أو هذه الإجابة دون غيرها تبعًا لحاله؛ لاختلاف أحوال الناس.

لذلك ومع تأمل واقع الأمة اليوم وإدراك عمق الخلل والانحراف فيه، وهو انحراف هائل ليس في جانب واحد فقط، بل هو متشعب في شتى مناحي الشبهات والشهوات؛ انحراف في الحكم حيث الحكم بغير ما أنزل الله، والسياسة الملوثة، وانحراف في الاعتقاد بشتى صور الانحراف فيه، والشركُ منتشر بجميع أنواعه وصوره، والجهل فاش، والفساد الأخلاقي طاغ، والفواحش والمنكرات ظاهرة ويُتباهى بها، والأمية والفقر والتخلف والتفرق والاختلاف والتشاحن، إلى غير ذلك.

فحين تتسع أبواب الخلل والانحراف لابد أيضًا أن تتسع أبواب الدعوة ومجالاتها، ولا بد أن تتنوع أساليب علاجها، مما يؤكد أهمية التخصص، وتفوقِ كلٍّ في مجاله، وهذا وإن وعاه السلف ووُجد فيهم بوضوح إلا أنه قد لا تكون الحاجة إليه في السابق كالحاجة إليه في عصرنا، ففي السابق قد ترى الرجل موسوعة يقف على أبواب شتى من أبواب العلم والخير، وينتهض للقيام بها جميعًا، ويوفَّق في ذلك، أما الآن فقد تنوعت طرق الحياة وتعقدت أساليبها وتسارعت حركتها، فحاجة الناس إلى التخصص أشد، والموفَّق من يؤدي دوره في موقعه أيًّا كان، كما في الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: "طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة".

وهاهو النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "أرحم أمتي بأمتي أبوبكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياءً عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبوعبيدة".

فخص النبي صلى الله عليه وسلم كل واحد من أصحابه المذكورين بخصيصة يثني عليه بها؛ كلٌّ له ميدانه الذي يؤدي فيه ويفضل فيه غيره، ولا يعني ذلك أنه أفضل من غيره مطلقًا.

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن لأنهما أنسب هذه المهمة من غيرهما، ولايعني ذلك أنهما يفضلان غيرهما من كل وجه. وكان إرسالهما أيضا خيرًا لهما وللأمة من بقائهما في المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعلمان ويتعبدان ويصليان في المسجد النبوي الذي الصلاة فيه بالأف صلاة في مساجد اليمن.

ولما سئل علي رضي الله عنه عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: "عن أيهم تسألوني؟ قالوا: عبدالله بن مسعود؟ قال: علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى به علمًا. قلنا: أبي موسى؟ قال: صبغ في العلم صبغة ثم خرج منه. قلنا: حذيفة؟ قال: أعلم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمنافقين. قالوا: سلمان؟ قال: أدرك العلم الأول والعلم الآخر، بحر لا يدرك قعره، وهو منا أهل البيت. قالوا: أبي ذر؟ قال: وعى علمًا عجز عنه. فسئل عن نفسه، فقال: كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكت ابتديت".

وهذا سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد رضي الله عنه ذو المناقب المشهورة والفضائل المأثورة، وقد أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأعجب بشجاعته وإقدامه فأخبر أنه سيف من سيوف الله. وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: "ما عدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد في حربه أحداً منذ أسلمنا".

وفي غزوة حنين جاء النبي صلى الله عليه وسلم يتخلل الناس يبحث عن خالد رضي الله عنه، فنفث في جرح كان قد أصابه.

وهو الذي يقول عبارته المشهورة: "ما من ليلة يهدى إلي فيها عروس أنا لها محب بأحب إلي من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية من المهاجرين أصبح فيها العدو"!

ويقول: "لقد شهدت زهاء مائة زحف، وما في بدني موضع شبر إلا وفيه ضربة من سيف، أو طعنة من رمح".
ومع كل تلك الفضائل والجهاد قال: "لقد منعني كثيرًا من قراءة القرآن الجهادُ في سبيل الله". ويروى أن سبب هذه المقولة أنه صلى بالناس إمامًا فأخطأ في قراءته.

وهذا أبو ذر رضي الله عنه أحد السابقين الأولين من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أثنى عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، وكان رأسًا في الزهد والصدق والعلم والعمل، قوالًا بالحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وفضائله ومناقبه كثيرة رضي الله عنه.

ومع كل هذه الفضائل قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين على مال يتيم"!

وليس ذلك لعدم أمانته -وحاشاه- ولكن شرط الولاية ليس الأمانة فقط، بل القوة مع الأمانة.
كما قال تعالى:﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: 26] ، وفي قصة سليمان عليه السلام:﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: 39]

فهذان شرطا كل ولاية، والقوة بعدُ هي المقدَّمة، وكل ميسر لما خُلق له.
وفي ميدان العلم نجد أبا هريرة أحفظ، وابن عباس أفقه، كما أنه لم يكن كل الصحابة علماء ولا مفتين، بل حتى المُفتون منهم ما بين مكثر ومقل ومتوسط، كما قرره ابن القيم في إعلام الموقعين، ومن قبله ابن حزم.

فالتنوع إذن أمر قد وَسِع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فليسع غيرهم، وهكذا التابعون وأتباعهم وأتباع أتباعهم يتفاوتون فيما بينهم.
قال ابن المبارك: "رأيت أعبد الناس عبدالعزيز بن أبي رواد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبوحنيفة، ما رأيت في الفقه مثله".
وقال أبو عبيد: "انتهى العلم إلى أربعة: أبو بكر بن أبي شيبة أسردهم له، وأحمد بن حنبل أفقههم فيه، وعلي بن المديني أعلمهم به، ويحي بن معين أكتبهم له".

ولما ضاق فهم بعض الناس عن ذلك -وكان رجلًا عابدًا- كتب إلى الإمام مالك يلومه لانشغاله بالعلم والتعليم عن كثير من التعبد القاصر نفعه؛ ويحضه على الانفراد والعمل، فكتب له مالك رحمه الله: "إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرُب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر"! لله در الإمام! ما أفهمه!

فليت شعري متى يفقه العاملون في مجالات الخير المتنوعة ذلك؟! ومتى يدركون أن الواجب عليهم التعاون على البر والتقوى، وعدم تحقير جهود الآخرين وأدوارهم؟! ومتى يكف المرء عن السعي إلى حمل الناس على ما يحب ظنًّا منه أن ذلك هو المحبوب الوحيد إلى الله والطريق المتعين موصلًا إلى الله؟!

إننا لو وضعنا عبارة الإمام مالك هذه: "كلانا على خير وبر" نبراسًا لنا؛ لارتفعت إشكالات كثيرة، وتغيرت نظرتنا لكثير من الأمور والأشخاص والأعمال، لنصل إلى معرفة أن الوسائل كلها مطلوبة؛ ولابد من القيام بها جميعًا، وهي موصلة لغاية واحدة، فلتقم كل طائفة بما تحسن، ولتُستَغل المواهب على تنوعها والطاقات على اختلافها في خدمة دين الله، وليدخل الجميع من أبواب متفرقة يجمعها الصراط المستقيم الذي يسع اختلاف التنوع، ولتسد جميع الثغور، ولا يعيب بعضنا بعضًا؛ بل يكون لسان حالنا جميعًا: "كلانا على خير وبر".

قال ابن تيمية رحمه الله: "ولا ينبغي لأحد أن يترك خيرًا إلا إلى مثله أو إلى خير منه".

وقال رحمه الله في سياق كلام له عن أنواع الخلاف، وأنه إما خلاف تنوع أوتضاد، وفصَّل في صور خلاف التنوع، وكان مما قال فيها: "ومنه ما يكون طريقتان مشروعتان، ورجل أو قوم قد سلكوا هذه الطريقة، وآخرون قد سلكوا الأخرى، وكلاهما حسنٌ في الدين، ثم الجهل أو الظلم يحمل على ذم أحدهما أو تفضيله بلا قصد صالح أو بلا علم أو بلا نية".



ومن نفيس الكلام في هذا ما قاله العلامة ابن القيم في طريق الهجرتين، قال رحمه الله:

"والمقصود أن الطريق إلى الله واحد فإنه الحق المبين، والحق واحد مرجعه إلى واحد، وأما الباطل والضلال فلا ينحصر؛ بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق إلى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلا؛ فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وإيضاحه: أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع، فجميع ما يرضيه طريق واحد ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعا واحدا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها-لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرىء إلى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله، ومن هنا يُعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: "الأنبياء أولاد علات دينهم واحد".

فأولاد العلات أن يكون الأب واحدًا والأمهات متعددة، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها إلى أب واحد كله.

وإذا علم هذا؛ فمِن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريقَ العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته، قال تعالى: ﴿ مَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾[النساء: 100]، وقد حكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن أنه رؤي بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ؛ فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكرَ، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاةَ، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسانَ والنفعَ المتعديَ كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقا إلى ربه.

ومن الناس من يكون طريقه الصومَ، فهو متى أفطر تغير قلبه وساءت حاله.

ومن الناس من يكون طريقه تلاوةَ القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه.

ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحجَّ والاعتمارَ.

ومنهم من يكون طريقه قطعَ العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة".

ثم ذكر حال من جمع تلك الطرق كلها -هو نادر- فقال:

"منهم الجامع الفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق، هو قد جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك، إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذِكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها ، لو قيل ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت، جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلّمت إليه المبيع منتظرا منه تسليم الثمن، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة. ومعنى النفوذ إليه أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه فيسلو بِهِ عن جميع المطالب سواه، فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقرب إليه، فإذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأخذ بقلبه إليه وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه وتولي تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده؛ فإنه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه ورضي به من دون الناس حبيبًا وربًّا ووكيلًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا، فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقا إليه ويقع شكرا له". نسأل الله الكريم من فضله.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في التفاضل بين الأعمال: "والصحيح: أنه يختلف باختلاف الفاعل وباختلاف الزمن، فقد نقول لشخص: الأفضل في حقك الجهاد، والآخر: الأفضل في حقك العلم، فإذا كان شجاعا قويا نشيطا وليس بذاك الذكي؛ فالأفضل له الجهاد؛ لأنه أليق به. وإذا كان ذكيا حافظا قوي الحجة؛ فالأفضل له العلم. وهذا باعتبار الفاعل.

وأما باعتبار الزمن؛ فإننا إذا كنا في زمن تفشى فيه الجهل والبدع وكثر من يفتي بلا علم؛ فالعلم أفضل من الجهاد، وإن كنا في زمن كثر فيه العلماء واحتاجت الثغور إلى مرابطين يدافعون عن البلاد الإسلامية؛ فهنا الأفضل الجهاد. فإن لم يكن مرجح لا لهذا ولا لهذا؛ فالأفضل العلم. قال الإمام أحمد: "العلم لا يعدله شيء لمن صحت نيته". قالوا: كيف تصح النية؟ قال: "ينوي بتواضع، وينفي عنه الجهل". وهذا صحيح؛ لأن مبنى الشرع كله على العلم، حتى الجهاد مبناه على العلم، ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾".

فلا يحسن بعد ذلك أن يربى الناس على لزوم طريقة واحدة، ولا أن يُسلَك بهم جميعًا طريق واحد، وإنما لكل إنسان طبيعة خاصة ويليق به طريق خاص، ولكل طريقته في التفكير والعمل وشخصيته المستقلة عن شخصية غيره، ولكل قدرات تختلف عن قدرات الآخرين، فلا يحمل الجميع على أن يتحولوا إلى وُعَّاظ أو طلبة علم أو مجاهدين أو إلى ميدان معين من الميادين دون غيره، وإلا بقيت ثغور تحتاج إلى من يسدها، وإنما الواجب أن يكون هناك إطار عام للتربية، ويبقى بعد ذلك جانب يراعَى فيه حال كل شخص على حدة ويتعاهَد فيه.

ثم لابد أن يفهم هؤلاء جميعًا أنه عندما يسلك أحدهم ميدانًا من ميادين الخير بحسب استعداده له وإن كان فاضلًا فإنه لا يسوغ له بحال أن يحقر أخاه السالك ميدانًا آخر وإن كان مفضولًا، فمن سلك طريق الجهاد لا يسوغ له أن يحقر طالب العلم الذي حبس نفسه وفرغها للبحث في المسائل الفرعية والقضايا الدقيقة، وعكسه كذلك، وليس لهما أن يحقرا جهد من سلم سبيل الدعوة أو العمل الاجتماعي، بل ذلك كله من البغي والظلم، و"بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم"، وفي ذلك مشابهة لأهل الكتاب الذين أخذوا طرفًا من الحق وتركوا غيره وذمت كل طائفة الأخرى، كما قال تعالى:﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: 14]

فلابد أن يُعلم أن كل واحد على ثغر من ثغور الأمة يسده لخدمة دين الله سبحانه وتعالى ولإحياء الأمة، وأياً كان هذا الثغر فالكل على خير وبر، وكل هذه الأبواب مطلوبة ومرادة للأمة جميعًا، وعلى المرء أن يقوم بما يحسنه من الواجبات الكفائية ويدعو لإخوانه القائمين بسائر الواجبات، ويتعاون معهم بقدر ما يستطيع.

ومما ينبغي التنبيه عليه: أن الكلام إنما هو في الواجبات الشرعية والمندوبات، وفي التكامل في القيام بها، لا في أن يطغى جانب على غيره فيحصل الخلل والنقص، ولا في أن يشتغل الناس بأمور ليست شرعية أو مليئة بالمفاسد وأشرف أحوالها أن تكون مباحة، ويتركوا الواجبات والمندوبات!

ولقد كنا دهرًا نفاخر بالعلم والدعوة ونرى أنهما الطريق الأمثل لإصلاح المجتمعات ونذم من يستغرق في الحلول السياسية، ونرى أن الإصلاح الحقيقي لا يكون بذلك، ثم قامت الثورات العربية فاستغرق كثير من الدعاة والعلماء وطلبة العلم في السياسة وممارساتها وانشغلوا عن واجبهم الأصلي، ولم يستثمروا مناخ الحريات الذي كانوايحلمون به ليمارسوا دعوتهم وتعليمهم!

وقد كان يسعهم أن يشرفوا على من سلك هذا السبيل ويوجهوه، أو على أقصى تقدير أن ينشغل به بعضهم وليس كلهم ولا المبرزين منهم بحيث خلت الساحة أو كادت منهم، وساءت بهم الظنون، وتلوث كثير منهم بأوضار هذه المفاسد التي لو تلوث بها غيرهم لكان الخطب أهون، كما قال ابن تيمية رحمه الله: "يحسن من بعض الناس ما يستقبح من المؤمن المسدد"، فكيف بأهل العلم! ورأينا من الترخصات والتنازلات والخطابات غير المنضبطة التي لا تليق بأهل الحق الشيء الكثير. والله المستعان.

فنسأل الله تعالى أن يهدينا وإخواننا سبل السلام وأن يبصرنا بالحق ويمسكنا به حتى نلقاه عليه؛ إنه جواد كريم.